

منظمة التحرير الفلسطينية

دائرة الثقافة

محمد علي طه

عائد و حفيظة

دار الثقافة الجديدة

عـائد المعيارى يبيع المناقيش

فى تل الزعتر

وردة من أجل عينى حفيظة

*عائد المعيارى

يبيع المناقيش فى تل الزعتر

*وردة من أجل عينى حفيظة

محمد على طه

*طبعة خاصة - القاهرة ١٩٨٩

- دار الثقافة الجديدة

- دائرة الثقافة / منظمة التحرير الفلسطينية

محمـد علي طـه

عائد المعياري يبيع المناقيش في تل الزعتر

وردة من أجل عيني حفيظة

سلسلة الأدب الفلسطيني ٨

عائد المعيارى
يبيع المناقيش
فى تل الزعتر

(قصص)

الاهداء:

إلى ولدى معاوية

عائد الميعاري يبيع المناقيش في تل الزعتر

ت

في يوم الاربعاء الثاني عشر من تموز من العام المسمى ١٩٧٦ بعد ميلاد السيد المسيح لم يتحدث الناس في تل الزعتر عن صد الهجوم الثاني والخمسين الـذي شنتـه ذئـاب الكتـائب مدعوماً بالدبابات المسحوبة من هضبة الجولان فمثـل هذا الحـديث كان لوكـالات الانباء العالمية أو للوكالات التي تسمى من بابي التسامح والاحتياط «عربية». ولكن الناس، وأشدد على كلمة «الناس» في تل الـزعـتر كانـوا يتحـدثـون عن أمـر آخـر. فلا تهمهم تصريحات القاهرة وبغـداد والـريـاض لانهم لم ينسوا ايلول بعد. . وما دام زعماء العرب من هذا الطـــراز فطـز!! ومـا حك جلدك يا ولـد مثـل ظفـرك. . فلماذا تكـبر النعجـة بوسختها. . وما دام انسان المخيم اعتاد ان يقدم البطولات الاسطورية بلحمه ودمه طيلة سنوات فما همه ان تتحدث وكالات الانباء بذلك أو لا تتحدث. . . وما ضره لو شرب عشرون وزير «خارجية» القهوة أو «الكيف» في جامعة الدول العـربيـة. . ولكن سكـان مخيم تل الـزعـتر المدافعين بأسلحتهم. . والشيوخ والنســاء والاطفـال الصامدين، كانوا يتحدثون عن ولد اسمه عائد الميعاري. وعـائـد الميعاري للذمة والتاريخ لم يقتل كتائبياً. . ولم يأسر شامياً. . ولم يتظاهر في

مخيم بلاطة. ولم يتعارك في معركة «متكافئة» مع دبابات شمعون كميل، أو شمعون بيرس، أو شمعون أسد!

ولكن عائد الميعاري انسان آخر. ولد اسمر وطويل مثل اولاد المخيم. وله شامة على خده الايسر، وشعرات دليلة في ذقنه.. ولم يقبل فتاة الا ابنة الجيران عندما لاعبها في صغرها «بيت وبيت».

كان عائد الميعاري يملك صندوقاً خشبياً، وأولاد المخيمات في جباليا وبلاطة والوحدات واليرموك وتل الزعتر يملكون صناديق خشبية لمسح الاحذية وغيرها.. الا ان عائد الميعاري كان من طابع آخر، لا في قامته وهيئته ومهنته بل فيما هو أهم من ذلك.. وصندوقه يختلف عن كل الصناديق.. لا في لون خشبه ونوعه وصنعه بل فيما هو ابعد من ذلك.. فمثل هذه التوافه لا تثير اهتمام فرد من سكان مخيم طار اسمه حتى وصل الى هانوي وأبعد.. ان كان هناك ما هو أبعد..

. وما دام تاريخ ما لا نريد ان يهمله التأريخ قد وضع في رقبتي فاسمعو الحكاية..

ل

مع اشراقة شمس كل نهار، يردد صوته الجميل كلماته التي أصبحت جزءاً من صورته فيحبب الناس ببضاعته، ويذكر معدهم الخاوية بمناقيشه ذات الطعم الطيب، ويذكرهم بمداعباتهم له.. وبمداعباته الطفولية الرجالية لهم.. فيقول الجار البقال لجاره: «عائد الزعتر.. جاء» فيبدأ بغسل يديه وتمرح الابتسامة على وجهه الذي اعتاد العبوس، فيعلو صوته مقترباً «مناقيش.. مناقيش بزعتر.. مناقيش ساخنة.. ترويقة يا جوعان.. مناقيش بزعتر يا أهل تل الزعتر.. مناقيش عائد الميعاري ماركة مسجلة!».

أما جماهير شارع «الحمراء» وزوار «الروشة» وحي الفنادق فلا يعرفون عائد الميعاري ولا مناقيشه، ولو جرى وسار خارج المخيم وبح صوته ما أثار اهتمام أحد الا كاميرات السياح وصفعات الدركي اللبناني. . ولكن عائد الميعاري ولد عاقل يجري وراء لقمة العيش ويتجنب الصدام مع جندرمة «الحكم الشرعي» فلم تعرف قدماه الا ازقة تل الزعتر. فعرفه الناس وعرفهم، حتى صار جزءاً من حياتهم اليومية. . في الساعة السابعة يمر بزقاق رقم خمسة. . وفي الثامنة في زقاق رقم تسعة. . وهلمجرا.

وعائد الميعاري يعرف اسماء زبائنه ويعرف اسماء مدنهم وقراهم فينسبهم اليها. . ويعرف نباتات وفواكه أرضهم ليداعبهم بأسمائها. . فهو يرسم كل يوم خارطة فلسطين في تجواله. . فعندما يمر أمام حانوت سامي طاهر يصرخ «يافاوي يا برتقال! ليمونك يا يافا أطيب من الكنافة! مناقيش بزعتر فطور العافية يا عم سامي!» وحين يقترب من منجرة حسن سليمان يقول «يا عيني ع الملوخية، أكل الملوك يا ملوخية، مع حمام يا ملوخية، مناقيش بزعتر فطور العافية يا عم حسن!» فاذا وصل آخر الزقاق ورأى حسن الامارة مشغولاً بتصليح الحذاء صاح «من كفر كنا يا رمان. . مناقيش بزعتر فطور العافية صحة للنظر!» فينادي حسن الامارة «يا عائد، يا ميعاري، يا بو الزعتر تعال!».

أ

عائد الميعاري ولد طويل أسمر ولم يلبس في حياته سروالاً على قده. . فسراويله أما طويلة جداً وتكنس الشارع، واما تكشف عن ساقيه. وأحياناً تكون واسعة من شدة الرخاء. . وهو لا يعرف لعب الاطفال. . لم يشتر طابة ولم يركب دراجة. . فمنذ صغره علموه أن يكون رجلاً فقفز طفولته قفزاً عريضاً

فحطم كل أرقام الالعاب الاولمبية قديماً وحديثاً. . وكان يفكر - مراراً - في أثناء الليل وهو يتمطى على طراحته وجسمه ملتف بالبطانية السمراء - بطفولته التي لم يعرفها. . وكان يحلم بها. . لكن احلامه كانت عكسية. . فهو يرى ان هذه الطفولة ستتحقق يوماً ما. . فقد شاهد اولاداً يلبسون الملابس الجديدة والملونة عندما خرج من المخيم ذات مرة. . وشاهدهم يلعبون العاباً يسيل لها اللعاب. . سماها فيما بعد «السعادة». . وربطها بأحاديث والديه عن قريته المهجورة. . عن التوتة الغزالية. . وكرم العنب. . عن المواشي والبيادر، ومقاثي البطيخ والخروش. . عن أولاد عمه وأقاربه في بلاطة والوحدات و. .

ويتساءل. . هل اذا عاد الى قريته. . وعادت اليه هذه الدنيا التي ضاعت. . والتي رسمها والده في حديثهما مرات عديدة. . ترى، هل سيتذوق طعم «السعادة» التي ستعوضه عن «الطفولة»؟!

ل

تردد عائد الميعاري على مدرسة المخيم خمس سنوات، فأبوه كان يحب العلم. . فلما توقف الصليب الاحمر عن تقديم «الاعاشة». . ترك مقعد الدراسة وحمل صندوقاً خشبياً يذكره بالمقعد الدراسي، وصار يبيع المناقيش بدل ان يحمل القراطيس. . وبقي يحن الى الكلمة المطبوعة. . يتهجاها ويفك حروفها. . فاذا ناوله احد البقالين جرائد قديمة ليفرشها في قاع صندوقه أخّر واحدة منها لنفسه. . فعائد يجهد نفسه ليتثقف. . فقد قال له والده مرة «نحن لا نعود الا بالعلم!» ولكن قراءته للجرائد أثارت فضول البعض فكانوا يحاولون التفكه فيسألونه عن آخر الاخبار في جريدته. . فيهز رأسه عدة هزات الى أمام ويقول «الدنيا بخير. . ابشروا. . مناقيش بزعتر». . ولكن عائد الميعاري بصق الحصوة في أواخر حزيران الماضي فقرأ ما لا يخطر على بال أحد وهو

يجيب حسن الامــارة: «اسمــع يا عم حسن! الاخبـار تقـول. . ـ وتظـاهـر بالقراءة ـ: الملك فاروق غادر مصر ليعلب القمار مع شاه ايران. الملك عبدالله باع المسجد الاقصى والكنيسة ويلعب الشطرنج في بسمان. . امام اليمن يقوم بزيارة شقيقه السلطان. . فقال حسن الامارة: وسوريا؟

فأجــابــه: سوريـا يا حبيبتي، أعـدت لي كرامتي، حزب البعث بعث سوريا من هضبة الجولان الى تل الزعتر.

سوريا يا حبيبتي. .

أعدت لي هويتي. .

ز

ذات صباح قال عائد الميعاري لسامي طاهر: «يا عم سامي هل تدري أني أخـدم القضيـة؟» فابتسم سامي طاهـر وقال وهو يتناول منقوشة: «ان بيع المنـاقيش واطعـام النـاس الجـائعـين خدمـة للقضيـة!» فاحتد عائد الميعاري واعتبرها ثقيلة. . فمثل هذا الموضوع فوق المزاح. وقال «اسمع يا عم سامي! أنا لست مقطوعاً من شجرة. نحن عائلة طويلة وعريضة. . قدمنا الشهيد اثر الشهيـد. وخـدمـة القضيـة في دمنـا ـ أخي أحمد استشهد وهو يصارع دبابات البدو في الوحدات. . واختى لينة استشهدت في قصبة نابلس برصاصة جندي خريــج هارفـرد. . وأخي حميـد جاء خبره من مخيم بلاطـة فزغـردت أمي. . وشقيقتي خديجـة حاربت في سخنـين جيشـاً وصـل الى مشارف دمشق وجعل قادتهـا يسلحـون في سراويلهم. . هل تريـد أن أعدد لك أكثر. ؟؟ أنا لست مقطوعاً. أنا أخدم القضية في بيع المناقيش، أجل. . ولكن. .

وسار عائد الميعاري وصندوقه. . وعينا سامي طاهر تتابعاته بابتسامة خبيثة!!

ع

في الفـاتـح من تموز. . وفي صد هجوم بعثي كتائبي هاشمي منفتح. . استشهد المعلم خليل بشظية صاروخ سقط على مدرسة المخيم. . وهويشرح لطـلابـه عن معـركـة حطـين. . فقرر طلابه ان يدفنوه بمراسيم تناسب المقام وعلى قدر الحـال. فترك عائـد الميعـاري صنـدوقـه في البيت وذهب لحضـور الجنـازة. فلما سمـع المـراثي الحـماسيـة تشجع وتقدم قائلاً: «الآن كلمة عائد الميعـاري. » فنظـر البعض باستغـراب وقـالـوا «بيـاع المناقيش!!» لكن الجميع احترم رغبته وارادته فخطب بتراء ثانية حينما قال:

«اسمع يا معلم خليل! أنا لا أعرف الخطابة. ولم اختم القرآن. ولكني حفظت عنـك درساً لن انسـاه. لقـد حدثتنا مرة عن صحابي اسمه بلال بن رباح. وقلت انه كان انساناً صاحب عقيدة ومبدأ. وكان اسمر وطويلاً. وكان أميـة بن خلف يعـريـه في حر الظهيرة ويجبره على افتراش الرمل ثم يضع على صدره صخـرة ويهـدده ان لم يعـد الى دين اميـة أن يقتله بالعـذاب. فيردد الرجل: أحد. أحد. حتى مر ذات يوم ابو بكر الصديق ففداه بماله. ولكن يا معلم خليـل، أبـو بكـر قد مات. وبلال بن رياح ما زال حياً يرزق. . واقسم بطهارة المناقيش والخبز والزيت والزعتر اني شاهدته هذا الصباح عدة مرات. . شاهـدتـه مرة عاريـاً وعلى صدره ابـو الهـول. . ومرة ثانية عارياً وعلى صدره صخرة من صخور عجلون. . ومرة ثالثة عارياً وعلى صدره صخرة من صخور العلوية. . ومرة رابعة. . وخامسة. . و. . ونحن يا معلم خليل لا نملك مال ابي بكـر. . ولكننـا سنفـدي الـرجـل الطـويـل الاسمر بما هي اغلى من المال وأكثر. . بالدم!!

ت

عنـدمـا يفرغ صندوقه الخشبي من المناقيش ويتوقف القصف الوحشي

لدقائق يخرج عائد الميعاري من الخنادق ويسير وراءه رفاقه واترابه فيكونون جوقة مطربها عائد الميعاري . . فيبدأ بالغناء ويرددون وراءه :

فيتنامي يا فيتنامي
ابن العزة والكرامة
انت من خلفك هانوي
وانا خلفي . . .
فيصرخ أحدهم : بيروت
فيرددون: هاي . . هاي . .
فيصرخ ثاني: دمشق الشام
فيرددون: هاي . . هاي . .
فيصرخ ثالث: عمان
فيرددون: هاي . . هاي . .
ثم ينشدون معاً بصوت قوي :
فيتنامي يا فيتنامي
ابن العزة والكرامة
انت من خلفك هانوي
وأنا خلفي
حرامي . . !

العاديات

«سين سكون»

وقال الراوي: وجدتها في الزيب».

لعبت مع جارتي سلمى ترب طفـولتي لعبـة البيت. . وركبنـا الخيـول القصبيـة. . وروت لي آخـر حكـايـة سمعتها من جدتها الحاجة خديجة. . ثم تذكـرت ان امي لفتت انتبـاهي ان اعـود مبكـراً لتنـاول عشاء دسم ـ لا أذكر منـاسبتـه ـ. عدنـا معاً. وجدت الرجال يقفون قرب دارنا قلقين. كانت دارنا اعلى بقعة في القرية. ماذا جرى لأهلي؟ الناس ينظرون غرباً. . عمود دخان يربـط قرية «الدامون» بالسماء. قال عجوز «سقطت!!». وبكى. كانت اول مرة اشـاهـد فيهـا رجـلاً يبكي. نظـرت اليـه بخـوف ودهشـة. . لماذا يبكي الـرجـال في جيـوبهم نقود يشترون بها مايشاؤون؟. . وقال العم أحمد «مالكم؟ دبـابـاتهم تتحـرك وتصعـد الى ميعـار». وقال شاب «ميعار أو الموت». . ونظر العم احمد اليه وقال «بماذا ستقاتل يا حسن؟» ورمى عقاله على التراب وتناول كوفيتـه البيضـاء وربطهـا بعكـازة ويـده ترتجف والدموع تبلل شاربيه. صرخ حسن بغضب.

لا أدري ماذا جرى ـ بعدئذ ـ فقد عدوت وراء امي شرقاً . . ومنذ ذلك المساء وانا ابحث عن جارتي سلمى وعن «ميعار» التي محوها عن الخارطة . . قاسيت . جعت . عطشت . عريت . سال دمي .

وفي هذا الصباح . . دخلت الى دولة الزيب . . فوجدتها . . .

حاشية :

اعلن الرجل البوهيمي وهو يقف في البوابة «دولة الزيب ترحب بالسائحين من كل اقطار الارض!» . ثم نظر الينا مبتسماً ابتسامة من روى نكتة سمجة وداعب شعر لحيته الاسود وتابع كطفل يملك لعبة تمناها طويلاً : **«سكان الزيب كثيرون . . وينتشرون في بقاع الأرض . . ياتون فيتمتعون ثم يغادرون . . »** وسار وراءنا يتفحصنا ككلب الشرطة وهو ما زال يثرثر «**الدولة أم المتحف؟ حسناً . . ولكن الدولة هي المتحف . . انا واثق انه سينال اعجابكم . . ما عليكم الا ان تدفعوا ثمن التذاكر . . ادفعوا واعبروا . الآثار تنتظركم يا سادتي . . لقد وضعنا اهم انجازات التكنولوجيا بيدي علم الآثار وادارة المتحف . الآثار ستروي لكم عنها ما تطلبونه . انتم لا تحتاجون الى دليل . . .»**

لازمة :

أنا الزيب وانا المتحف . اهلاً بكم ايها القادمون من وراء البحار . . لتتمتعوا بعريي . . يا عابري الدروب ويا قاطعي الفيافي . . الزيب كانت سفير السماء الى الارض . . فصارت . . آه لا تكمموا فمي ! اعطانيها الرب لتتم نبوءة انبيائه . تجولوا بها تعرفوا على آثارها فهي تروي لكم قصة طويلة

ومثيرة. . ثم ندعوكم لقضاء ليلة حمراء مع فاتنة الزيب التي لن تنسوا حلاوتها وانتم تعبرون الى . . . . . .

أنا الزيب وانا المتحف. . اقول لكم. . . . .

«لام كسرة»

ليلى السعدي فتاة حلوة، كحل الليل عينيها وصبغ شعرها، واهداها الصباح لونه، ونفر صدرها كجبل الكرمل، ووهبتها الطبيعة وردتين من ورد الجليل. . وكانت تربأ لبرسيفونا وتلاعبها «السقلة» والغميضة في أزقة الزيب وعلى بيادرها. . وفي المساء كانت تجلس فوقي - هنا قرب بيتها - وتضع قدميها في ماء البحر لتبتردا وتغني اغنية حلوة للحورية والملاح.

وذات مساء شاهدت سفينة تمخر عباب اليم فوقفت على الشاطىء مع تربها ولوحت بمنديلها الاخضر والاصفر معتقدة ان الملاح عاد مع حوريته في موسم القمح. . وان الافراح والليالي الملاح ستقام على بيادر الزيب. وتقدمت السفينة من الشاطىء وخرج منها بلوتو واسر برسيفونا. . وسبى ليلى السعدي. . وسجنها. . وسربروس ما زال ينبح كلما شاهد ظلاً من جبل طارق حتى قناة السويس. .

«نون فتحة»

بعد ان يتطاير الندى كان يقف امامي ثورا حسين السعدي «حجاب» و«عجول» فير بطهما بي ويجراني بهدوء ينسجم مع صوت القش والسنابل والحب. . فاسناني السمراء كانت تكسر القش وتفرمه ببطء وراحة بال. . ادور

وادور وراء الثورين ولا امل وعلى ظهري الاملس كصينية النحاس يقف ابنه أمين يتحسس زغب وجهه وينظر الى الشامة التي دقتها الغجرية على ذراعه ويغني :

يا هويّا يا هويّا
أنا ورد ومورد على عين البنيه
يا حجاج ما حجاج بالله اسقوني ميه
قالوا لي لا بنسقيك ولا بنرويك ولا معانا ميه
قلت لهم بتسقوني وبترووني وانتم معاكم ميه
مسكوني من كتافي وجدعوني على قلمة معلا
سبع بواب سبع بواب وانغلقت عليّ
ركبت مهرتي واجيت غاره
ما هديت الا بأرض العمارة
لاقيت حبيبتي ع العين تملا
شلحت وشيحتي ومليت عنها
عزمتني ع دار ابوها الكبيرة
حطت لي المخدة ع الحصيرة
حطت لي العسل بالسركسية
حطت لي اللبن بقمع البيضة
حطت لي الخبز بالبذورية
أنا اكل . . أنا اكل وهي تعزم عليّ
وأنا أشرب وأنا اشرب وهي تقول هنيه
يا ناصر يا نصار يا بن المغربية
يا اللي دبوسك تمتعشر أوقيه
اول هواية صاح : الله واكبر

وثاني هواية تقتل ميه

وثالث هواية ما خلاّ حد حواليه

وفجأة تقـاطعـه ليلى وهي تعـدو نحـوه وتصـرخ: أمـين! دعني اجلس وراءك دورة واحدة.

ـ انصرفي الى المطبخ يا بنت.. يقولها بصوت قد اخشوشن.

ولكن دلـوعـة البيت لا تأبه.. ولا تهتم بكلامه.. تقفز قفزتين وتجلس وراء أمين عليّ

واتململ فرحاً.

«ياء ساكنة»

لست حفـرة رومـانيـة.. ولا انـا من العاديات الفرعونية.. ولا اعرف الآشـوريـين والعبرانيين.. ولا الفينيقيين.. ولكني صرت قطعة أثرية يزروها السائحون وينظرون اليها بدهشة.. وتشع اضواء كاميراتهم صوبها..

كانت ليلى تلعب مع الخـروف وتقـدم له العشب والحب والمـاء. تركبه تارة وتجـري وراءه في ساحـة الـدار مرة ثانيـة.. ثم يتبعها قفزاً في البستان تارة اخرى. ولما اكتنز لحماً وطبق شحماً قدمت له دلو الماء وقبلته ثم تقدم والدها وهو يحـمـل سكينـاً حاداً ووضعـه على عتبـة الدار.. بسم الله.. وقطعت ام ليلى اللحم ووضعتـه في جوفي وتنـاولت «الميجنـة» وبـدأت تضـرب اللحـم وتهرسه حتى صار كالعلكـة.. ثم صنعت الكبـة.. الكبـة النيئـة. والتفت العائلة ـ حسـين وفـاطمـة وليلى وامـين ـ حول الطبق تلتهم الـبرغـل الطـري الدسم المخلوط باللحم، بهناء وسعادة.

انتم لا تعرفون الكّبة . . ولا تعرفون معنى ان تلتف العائلة حول اطباق الكبة .

مازلت اشم انفــاس فاطمــة وهي تجلس بجــواري وبجــانبي صحن المـاء . . ومـا زالت موسيقى دقـاتهـا تك تك ترن في سماء الـدار . . انظروا آثار أصــابعهـا على جانبي . . ولكن يا سادتي . . علقـوا يافطة فوق رأسي تحملني هوية صليبية . . الحلم يا رب . . اللهم احفظنا من شهادة الزور . . لا يهم . . ولكني اتشهى ان تقبض فاطمـة الميجنـة بيـدهـا . . وتهرس اللحم بي . . لقد جمت . . والزمن تطاول . .

«طاء مدة»

من قش القمح لوتني فاطمة .

المجدرة والكبة والتبولة .

الشيخ برك ومناقيش الزيت والزعتر .

وضعتها عليّ وقدمتها لاهل الدار . . ويا هلا بالضيف . .

ليلى يا مقصـوفـة الـرقبـة لماذا لا ترتبـين الصحـون وتقـدمينهـا لوالدك واخيك؟ أما عاد من العمل بعد؟!!

شتاء، ربيع ، صيف، خريف،

شتــــــاء . . . .

صيـــــف . . . . .

ما زلت اقاوم السوس . .

سادتي . .

قولوا لليلى . . . .

«فـــاء»

أنا المحبوبة السمرا واجلي بالفناجين
وعود الهند لي عطر وذكري شاع في الصين

كانت تغني لي في طفولتها.. صباح مساء.. وهي تحملني مع الصينية الصفراء والفناجين الثلاثة.. وقلبها يخفق مخافة ان تتعثر قدماها وينسكب السائل الأسمر..

انظـــروا..

لا تزال الفناجين تغص بدموع سوداء!!

«نون كسرة»

جف جوفي. والصدأ على شفتي فتشققتا. اتشهى الرماد والجمر والتمباك الرطب. والوردة الحمراء التي كانت تضعها انامل ليلى وهي تحملني الى حسين السعيد.. وهو يجلس على طراحته تحت الليمونة في عشيات الايام الصيفية.

يفرك فمه باصابعه الغليظة فاشم رائحة الارض. ثم يعب ما يشاء فيزغرد جوفي.. ثم يستلقي على قفاه وقد نسي تعب النهار وحر الظهيرة..

إشارة:

قال القفص الخشبي..

كنت عشاً لعندليبها . . وكان لا يغرد الا لها . .
وكان يفهم لغة الاطفال وكانت تفهم لغة العنادل .
يغرد فتحضر الماء فيشرب .
يغرد فترقص على المصطبة .
يغرد فتجلس على صخرة الشاطىء وتغني . .
وكان . . ما كان .
واستبدلوا البلبل بجمجمة . ..
«تلك قسمة ضيزى» . . صدق الله العظيم .

صـــوت :

يمرون كل يوم . .
غريب في الدار التي وضعتني فيها أمي . .
سأروي لكم الحكاية . .
تغـذينـا ـ في عصـر ذلـك اليـوم ـ مجدرة ـ وحملت ليلى صينيـة القهـوة ووضعتها تحت الليمونة . . وعادت مع النرجيلة وهي تتمتم «برسيفونا برسيفونا» .
وفجأة . .
خرج من البحـــر .
سباهما . .
شردهما .
ورمى جثتي للشاطىء .
واغتال العندليب ووضعني مكانه .
اسقوني . . اسقوني .

همسه.

لا تدوسوني باقدامكم..

صحيح.. أنا صغير واسمر. لكني تعودت على انامل ليلى الناعمة وشعرها المعطر.

لقد سقطت من شعرها وهو يجرها منه.. به..

هل تعرفون ليلى؟

فتاة حلوة.. فارعة.. كحل الليل عينيها وصبغ شعرها..

خاتمة:

ينتح البحر صباح مساء ويغسل قدمي الزيب بدموعه.. وصخور الزيب اخشوشنت وهي تلطم وجهها حزناً على ليلى التي كانت تجلس وتغني للحورية والملاح.

وكلما ارتفعت موجة تتحرك الهامة في القفص وتشاهد جثة أمين فتصرخ..

تموز ١٩٧٥



وصادروا الفرح في مدينتي

وقال له حماره ذات يوم : «لقد اعياني التجوال يا شيخ . ارحمني ! جعل الله آخرتك راحة !» فاشفق الشيخ نصر الدين على حماره وودعه بدمعة حارة . . وبعد ايام مل الشيخ المقام فاستعار حصان جاره وامتطى صهوته وقال له : «انت كريم . . وابن اكرمين . وها انا مرخ لك العنان فاختر اي بقعة من الارض لنقوم برحلة تسرية وتسلية . فهموم هذا العصر كثيرة كما ترى!» . فشرب الحصان من ماء الميكونغ وصهل صهيلاً طويلاً حاداً . . فالقى الشيخ نظرة على السهول والغابات وابتسم بينما راح حصانه يسابق الريح ويطوي الفلاة لا يكل ولا يمل حتى وصل الى باب العمود في المدينة المقدسة فتجمهر خلق كثير حوله وتقدمت طفلة منه وقدمت له طبقاً مليئاً بالجراح المتبسمة فتناوله وقال : «الصورة نفسها . والشيخ نصر الدين يا ما رأى ! !» وحرك يده كأنه يتناول مرهماً ليكحل الجراح فتعالى الضحك والزغاريد والاغاني الشعبية . وانقشعت غيوم شباط فرقصت اشعة الشمس الذهبية الدافئة على حجارة السور وتسللت تداعب ازقة المدينة مغرية الصغار على الجري والعجائز على الاستحمام .

وصلت سيارة شرطة تحمل ملامح خاتم سليمان ، واطلقت عيارات نارية عديدة . وتكلم قائدها بمكبر الصوت : «يمنع التجمهر منعاً باتاً .

الشرطة ستطلق النار على المخالفين. كل من يغلق حانوته نصادره. الصراخ ممنوع! الاغاني محرمة الا بتصريح خاص!». وامتزج الوعيد مع اغاني الناس.. فتابع الرصاص خطابه. وانطلقت هراوات الجنود على رؤوس وظهور الرجال والنساء والاطفال. وحمحم جواد الشيخ الضيف وصهل بعدما خلا الشارع من الناس ولم يبق به سوى اخشاب مكسرة وحجارة ومنديل رأس ورغيف فلافل لم تؤكل منه سوى لقمة او لقمتين.. ولعبة صبي وحقيبة تلميذة.

واحتار الشيخ لكنه قال: «وعليك يا نصر الدين؟!» ثم ارخى العنان لجواده فانحدر الى البوابة فدخلها ودموع الجواد تبلل شاربيه.. فشد عنانه وقال: «من أيام تيمورلنك وحتى عهد الرئيس فورد ما بكى حمارك يا نصر الدين. طاف كثيراً وشاهد كثيراً وعينيه جامدة ما عرفت البكاء.. فما بال ابن الاكرمين. صديق صلاح الدين.. تبلل شارباه واحمرت عيناه وترطب أنفه؟؟ صبراً يا رفيقي.. والا.. والله استدعيته!» فرفع الجواد رأسه متكابراً وسار فتلقى بعجوز قد أضاع عكازه. فقال الشيخ: «قل لي.. الم يتعلموا بعد.. لماذا فعلوا ذلك؟». فنظر العجوز الى الشيخ نظرة حزينة ساخرة ثم تابع حبوه. فقال الشيخ لحصانه: «والله لو كان حماري معي لعرف هذا العجوز.. فقد صادفناه في اماكن كثيرة مرات عديدة!». لكن الجواد تابع سيره.. وسقط الزند يتطاير من ملامسة سنابكه لبلاط السوق

- قف ايها اللعين!

وانطلقت رصاصة. وحمحم الجواد وصهل. وانقض الجنود عليه بسرعة البرق.. قيدوا يدي الشيخ وعصبوا عينيه بخرقة سوداء فقال: «منذ قدمت سيارتكم الى باب العمود صرخ الاطفال: غيمت» فجروه بينهم الى المسكوبية. وبقي الجواد يسير في أزقة المدينة يسأل عن فارس حتى وصل الى ساحة المسجد الاقصى.

وفي مركز الشرطة سألوه:

ـ اسمك؟

ـ جحا.

ـ أبوك؟

ـ اسم امي فاطمة.

ـ عنوانك؟

ـ حول مواقد البيوت. وفي المقاهي.. والورش البدائية.. و... لن أقول لكم أكثر!

ـ مهنتك؟

ـ زرع الابتسامات على وجوه الناس والفرح في قلوبهم.

ـ انت متهم يا جحا بالمس بقدسية المدينة. وتحريض الجمهور على الفوضى. ونحن شعب متحضر ـ اعرف. اعرف. ـ ومتهم أيضاً بدخول مناطق مغلقة. وانت خطر على الشعب!!

ـ في عينه خشبة ويقول ما هذه القشة التي في عينك!

ـ اسحبوه!

ـ وجوادي يا حضرة الجنرال الوف مارشال باشا؟

وقادوه الى غرفة مظلمة واحكم السجان الباب.

حرك الشيخ قدمه ليتحسس الارض. خطا خطوة.. خطوتين.. ثلاثاً.. فتعثرت رجله بجسم فاقشعر بدنه وقال: «بسم الله.. مَنْ هنا؟».

وجاء الجواب: «أنت!!؟ أهلاً بالشيخ نصر الدين!».

ـ وهل تعرفوني؟

ـ استقبلناك مرتين في هذا النهار. المرة الاولى عند باب العمود. والثانية في دار خالتنا.

ـ الله لا يرحم خالتكم ولا دارها.

وتعالى الضحك. فتح السجان الباب وشتم عورات امهاتهم. فردوا عليه بشتيمة هزت كل جسمه فتوعدهم بأبي فلان وفلان وفلان.

فقال له الشيخ: متى ستحضرون كل هذه البصابع.. وهل ستطلقونها من قماقمها بعد ان سجنها سليمان؟

فأقفل السجان الباب بعصبية. فقال له الشيخ: لا تتلف أعصابك يا ولدي.. فما زال أمامك بعض أيام للعمل.

وساد الصمت.. وقطعه الشيخ «أنا لا أفهم. لماذا أقاموا الدنيا وأقعدوها...؟»

قال السجين الاول: الفرح ممنوع في مدينتنا.

قال السجين الثاني: الابتسامة محرمة.

قال الثالث: الاعياد مصادرة.

وأضاف الرابع، وقد استلقى على قفاه: زراعة الازهار عمل تخريبي.

فقال الشيخ: يا الله. الى هذه الصورة وصلت حالتكم؟!

- كل هذا يهون أمام حمام الصباح الساخن.

- ويتلوه البارد.

- ثم عملية تحفيف العروسة.

- والكي بين الفخذين.

فصرخ الشيخ: كفى. كفى. اخاف أن ابكي!

- عندما تبكي تقع.

- وعندما تقع توقع.

- وعندما توقع تصبح خرقة في مزبلة.

- وعندما تصبح خرقة تظهر في كل وسائل الاعلام!

فقال الشيخ: لم أسمع بهذا منذ قدمت الأوزة ذات الرجل الواحدة الى تيمورلنك.

ـ لو فعلتها اليوم لقدمتها بعين واحدة.

ـ وأذن واحدة.

ـ وبلا قلب.

وضحكوا. ولم يضحك الشيخ.

ـ هل تبكي؟

ـ لا.

ـ بماذا تفكر؟

ـ بالوعد الحق. ببلال وعمار والمرأة السمراء.

ها ها.. وأبي جهل وأبي سفيان وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة.

ـ الحكاية تتكرر على مر العصور فلا تحزنوا.

ـ وهل تعرف التاريخ يا شيخ!

ـ لا يعرف التاريخ معرفة حقيقية الا الذين يصنعونه. كما لا يعرف المرأة الا الرجل ولا يعرف الارض الا الفلاح.

ـ ولكن..

ماذا يا أبنائي؟

ـ اذا تزوج مختار الحارة الغربية فتاة حلوة سمراء من الحارة الشرقية رغماً عن اهلها ودون ارادتها.. ماذا يحدث؟

ـ ها.. ها.. زواج بغال.. لا ينجب الا الرفس!!.

آذار ١٩٧٥



بيان رقم ١

ثلاثــة اصــدقــاء لي في غربتي ، أحــلام اليقظــة وعلبــة سجائـري «الترانزستور» ، وجميعهم يساعدونني في صراعي مع عدوي الأكبر ـ الملل . لقد تعلقت كثـيراً بهم خاصــة بالـترانـزستـور. فصـار صديقي ورفيقي وأمـلي . . وكلما داعبت مفاتيحه في الصباح او المساء انتظرت الخبر المرجو منه ، وانا على يقـين انـه سيفعلهـا ، لا بد أن يقع هذا الخبر . . مهما طالت فلا بد ان اسمعه مرة . اخبـار كثـيرة تبشر بوقوعه . . احداث مباشرة واحداث غير مباشرة تقول انه سيقع . . واذا ما حدث فعندها . . وهنا ابتسم وانهض عن سريري واشعل سيجارتي واداعب مفاتيح الترانزستور . . موسيقى ، لكنها ليست عسكرية . يا ترانـزستـوري العـزيـز ، انـا بانتظار «بيان رقم ١» . لا بد يوماً ان يقطع المذيع اغنية «ام كلثوم» وتأتي موسيقى عسكرية لدقيقة واحدة . . ثم «ايها المواطنون! نتظروا بياناً هاماً» ، وموسيقى عسكرية للحظات . . ثم «أيها المواطنون! نحن بانتظـار بيـان هام !» ومـوسيقى عسكـريـة . . وبعـدهـا . . «في تمام السـاعـة . . . . » وتتحـرك الـدنيـا . . وتتغـير الاشياء التي عمرها ما تغيرت ، فالاشيـاء هنـا لا تتغير . . ملابس الناس وطعامهم وحياتهم واغانيهم . . ونهار الصحراء الحار والعواصف الرملية . . والليل القارس والسماء الصافية . . هي هي . . . لو كان لي «بكايات» ما بقيت هنا خمس سنوات بل قل ما جئت الى

هنا. قالوا: الحاكم ظالم. قلت: الفقر اشد ظلماً. والصبر يا حسن مفتاح الفرج. لولم يرحل والدي ويترك امي واخواتي الثلاث في رقبتي ما رضيت الانزراع هنا في الصحراء كالمنفي المقطوع من شجرة.

في العالم الاول كان اسمي «حسن افندي». كم ابتسمت للقب «الافندي» وكم خفت ان يلتصق بي هذا اللقب ويسمع به اهل بلدي فعندها لن يفارقني ما عشت. ومن يدري؟ فربما يصبح اسم العائلة ويحمله اولادي واحفادي والا فقولوا لي كيف يحمل هؤلاء الناس في بلدتنا القاباً بها سخرية مرة مثل «الباشا» و«البك» و«المفتي»؟!

ومنذ العام الثاني صار اسمي «المعلم حسن» فارتحت كثيراً لهذا العقاب. فقد عاقبني «سليمان» شقيق «صويلح» على ذلك. وكنت في البداية اغتاظ جداً عندما ينادونني «يا معلم حسن» لأنني اعرف ماذا وراءها. فقد حضر غلام مع فرس - في ظهيرة احد الايام - الى المدرسة وقال: يا حسن افندي! صويلح مات!

- الله يرحمك يا صويلح!

وفكرت لحظة. ولماذا لا يموت صويلح؟! الموت خير من حياته. يعدو وراء ابله طيلة النهار. ويوقد النار بجوار اباريق قهوة إخيه سليمان في المساء. ويدير فناجين القهوة على الساهرين.. وزوجته هزيلة كعود الحطب ونصف عمياء.. ولكنه، مع ذلك، شقيق سليمان.. فعليّ ان اتصرف بما يناسب مقام اخيه.

- يا عجيان! صويلح اعطاكم عمره! البقية في حياتكم!

فاسرع كل واحد الى حقيبته القماشية وتناولها وركض الى حماره وفك الرسن من الوتد وطوى المخلاة ووضعها على مؤخرة الجلال وامتطى حماره وهمزه ليسرع: ووقفت انظر.. قطيع من الحمير يعدو مخلفاً وراءه سحابة كبيرة من الغبار. لماذا يعدون؟ ولماذا لم ينتظروا اشارة مني ليتركوا المقاعد؟..

الحقيقة انهم اراحوني وحلوا مشكلة. فقد كنت محتاراً كيف اتصرف بالحصتين الباقيتين: ولكنهم فهموها على الطاير.

وقال الغلام: حسن افندي! المشايخ بانتظارك!

- حسناً.

اقفلت غرفة الدراسة وغرفتي ثم امتطيت الفرس وتبعني الغلام كأنه مهر لما يفطم.. فلما وصلت الى مقربة من خيمة سليمان وجدت معظم رجال القبيلة واولادها بانتظاري. وعلا صراخ النسوة. وصرخت احداهن تندب وقد سمعت في ندبها اسمي.. «حسن افندي». فعجبت. وترجلت عن الفرس. وحاولت ان ابدي حزني.

- البقية في حياتكم يا رجال. الهمكم الله الصبر والسلوان!

فتقدم «جمعة» ذو العينين الافعوانيتين، الطويل الاسمر كالنخلة وقال: يا حسن افندي اكرام الميت دفنه!

- فقلت: كلامك زين يا جمعة!

- فقال: تعال معي!

- واستغربت. الله! معك! مع جمعة.. لماذا؟

- ماذا تريد مني يا جمعة؟

فنظر جمعة اليّ فخفت من عينيه.. ثم قال: اللازم ياحسن افندي.. تغسل صويلح وتكفنه حتى نصلي عليه قبل الدفن.

- أنا.. يا جمعة!

- والا من يا حسن افندي!!

هل اغسل جثة صويلح؟ هل هذا من عملي واختصاصي؟ صويلح لم يستحم منذ اشهر ولا ريب ان رائحته تزكم الانوف بعد ان نفق.. ولم اشاهد وجه ميت في حياتي.. فكيف اجرؤ على الاقتراب من جثة صويلح؟ والصلاة على الميت؟ لقد تعلمت في الصفوف الدراسية الابتدائية صلاة

الجنازة. ولا أذكر الا اسمها واسم المعلم صلاح الذي علمني اياها.. فكيف اصلي على صويلح؟ ولكن الصلاة في القبيلة ليست مشكلة. سوف اصلي كما يخطر على بالي دون ان يعترضني احد. سأقول: خذوه فغلوه. لقد اراحه الله من اغنامه وزوجته واخيه.. وأمه وأبيه.. وابتسمت.. ولكني تذكرت غسل صويلح وتكفينه..

ـ يا جمعة هذا ليس شغلي.

فهجم سليمان ليلطمني وهو يصرخ: احنا مش قد المقام يا حسن افندي.. وشرف ابوي ان ما جهزت المرحوم لاقطع رقبتك.

وهذا ما لم اتصور وقوعه. ونظرت الى شيخ القبيلة مستجدياً: انا ما ادري يا عم كيف يغسلون الميت.. ولا بعرف الصلاة!!

فصرخ سليمان: يا حسن افندي.. معلم وحمار. اخص! لويش بعثوك!

وتمنيت لو ان الترانزستور معي وافتحه واسمع «بيان رقم واحد» وتمتمت: «لماذا لا تنشب الحرب؟» فسمعوها. فقال سليمان: «وانت رجل حرب يا مدني!». ولكن الحرب ما نشبت.. بل صار اسمي «معلم حسن» وهم يعنون «معلم وحمار، اخص! لويش بعثوك؟» وقد فهمت ان المعلم الذي لا يتقن مراسيم الغسل والكفن والصلاة والدفن.. معلم جاهل. فمعلم القبيلة هو كاتبها ومراسلها ومحاميها وسفيرها وامامها ومكفن امواتها.. و....... والذي سيعلن لها الخبر الهام.. بيان رقم واحد. وعندها تتغير الدنيا. ولا يهمني ان اكون «حسن افندي» أو «معلم حسن» او «حسن». بل سأشعر بطعم الحياة. سأقتل هذا الوحش الجبار. سأصرع الملل... الملل الذي يتحكم بي منذ خمس سنوات، لا شيء يتغير. تشرق الشمس حارة ملتهبة.. فانهض من فراشي وتداعب انامل مفاتيح الترانزستور. وانتظر سماع الخبر. أخص! لماذا ينفقون الاموال الهائلة على تكديس الاسلحة..

ولا يستعملونها؟ ثم اغسل يدي ووجهي بالماء. واشاهد مواكب الاولاد والحمير. حمير صغيرة وهزيلة. ذكور واناث. كل تلميذ وحماره. وعندما يصل الى مقربة من المدرسة ـ وللدقة ـ من غرفة الدراسة يترجل ويربطه بوتده ويعلق المخلاة في عنقه ثم يتقدم الى غرفة الدراسة وينضم الى زملائه ويبدأ بحل وظائفه البيتية. . التلاميذ ببلدتي يهتمون بدروسهم والعابهم وفي القبيلة يهتمون بحميرهم ودروسهم.

كان المنظر مسلياً لي في البداية. . فالغريب مرغوب. وقد التقطت عدة صور تذكارية كأنني سائح خاصة عندما علمت ان تلامذي يتنافسون في مسابقة حميرهم أكثر مما يتنافسون في دروسهم. وان هذه المنافسات تؤدي أحياناً الى شجار بينهم يستعملون فيه العصي والحجارة. . وقد امضيت الاشهر الاولى وانا اعجب من حكاية حماري «سعد» و«طلب». والصراع الدائم بينهما بسبب حماريهما. وكيف تراشقا بالحجارة فشج رأس طلب وسالت دماؤه فاحترت ماذا افعل فلا قطن ولا يود ولا لفافة في المدرسة. ولكن احد الغلمان انقذني عندما ملأ كفيه بالرماد ورشه على الجرح. وعجبت من هذا الدواء. ولكن هذه الحكاية قد نسيتها ولا اتذكرها الا عندما اشاهد سعداً وطلباً. فالايام تمر غير عابئة باحد سواء عدت كالخيول أو زحفت كالسلحفاة فسعد يدرس اليوم في مدرسة ثانوية في مدينة بعيدة ولا يعود الى القبيلة الا كل شهر. وطلب يعمل في مستوطنة زراعية اقيمت على ارض البدو المغتصبة في مشارف رفح ويعود كما يحلو له دون نظام. . اما انا فاقرع كل صباح الجرس الحديدي الصديء ويصطف تلاميذي بملابسهم التي تخلو من الاناقة. . وعلاقتها غير ودية مع النظافة. . ويدخلون الى الغرفة ـ اي البراكية ـ ثم تبدأ الدروس. اللغات والتاريخ والجغرافية والحساب وغيرها. دروس ما زلت اعلمها منذ خمس سنوات. واعيدها كالببغاء على طلاب السنوات الاولى الى الخامسة المحتشدين في براكية واحدة. «باسم يلعب مع لولو. لولو تلعب مع

باسم. كلب جوني امين. حفر دي لسبس قناة السويس. يصب نهر الفرات في شط العرب. الضلع الاكبر في المثلث يقابل الزاوية الكبرى» وتساءلت مرة: لماذا لا تلعب «صبحة» مع «ذيب»؟ ولماذا لا نقول: حمار قاسم هزيل؟. وماذا يهم اهل النقب اذا كان دي لسبس حفر قناة السويس ما دام الجمل سيفينتهم؟ ونهر الفرات يصب في شط العرب والناس والحيوانات تموت هنا عطشاً والاستحمام من الكماليات!! ترى كم مرة تستحم صبحة في الاسبوع؟ في الشهر؟ في.. وابتسمت..

لا يمكن ان تلعب صبحة مع ذيب! فذيب ملابسه قذرة ومهترئة وشعره منفوش. ولا يعرف الالف من العصا. وهي بديوة حسناء. وجهها قمري وشعرها ليلي. طويلة رفيعة. لها صوت جميل عندما تغني لغنماتها. وقد سمعتها لاول مرة عندما كنت عائداً للقبيلة مع بداية العام الدراسي وهي تغني «بالله تصبوها القهوة وزيدوها هيل.. وتسقوها للنشامى ع ظهور الخيل..» فشدتني اليها.. فاقتربت منها..

- العوافي يا صبية.

- الله يعافيك يا حسن افندي.

صوتك حلو.

- فاستحت. ونظرت الى الارض، وقالت: هذا مديح ما كنت اتصور اسمعه.

- هذا حقيقة يا.. الاسم بالخير؟

- محسوبتك صبحة!

- صبحة وعند اسمك.

ولا ادري لماذا ذعرت كمهرة فر من امامها عصفور وقالت: يا حسن افندي لا تطول حديثك! سير والله معك! لو شاهدك الرجال فالذبان الأزرق ما يهتدي لدمك!!

وتابعت سيري الى المدرسة وانا اتخيل بدوياً يحمل طبنجة ويهجم عليّ. والدم يسيل. ولا احد يعلم بمصرعي. ولكن صورة صبحة بقيت راسخة في دماغي وهي تنفخ في شبابتها ثم وهي تغني «صبوا القهوة».. صبحة البدوية الاصيلة وليس سميرة توفيق المقلدة.

ولما وصلت الى المدرسة وجدت التلاميذ ينتظرونني فكتبت على اللوح «لولو ترعى الاغنام!!» فقال غلام: صبحة ترعى الاغنام يا حسن افندي والشيخ سليمان بدو يتجوزها!!

لسليمان ثلاث زوجات وقد تجاوز الخمسين من عمره. وصبحة غادة في ريعان الشباب.. الحذر الحذر. لو شاهدني لهدر دمي. واستعدت صوراً عديدة عن حوادث القتل والأخذ بالثار وغسل العار عند البدو. صوراً شاهدتها على شاشة السينما اوعلى الشاشة الصغيرة اوقرأت عنها في الكتب. ترى هل سأكتب قصة جديدة؟ مثل عليا وعصام وقيس وليلى وفارس ونجود.. وحسن وصبحة؟!!

وعدت الى الدرس. وحدثت تلاميذي عن الحياة في المدينة وعن التلاميذ وملابسهم وطعامهم والعابهم فرفضوا تصديقي وقال احدهم: كلامك حلم والا علم يا حسن افندي؟ فاقسمت بشرفي ان ما اقوله صحيح. فضحكوا. ولما سألتهم مستغرباً عن سبب ضحكهم اشاروا الى شاربيّ الحليقين. فعجبت من هؤلاء البشر الذين يرون الشرف مستوطناً في شعر الشاربين.. وفي فرج المرأة. ثم قلت في سري وكأنني اكتشفت نظرية علمية «حيث يوجد شعر يوجد شرف!» ولادلل عن نظريتي قلت: من اجل هذا يتمسك البدوي ببيت الشعر. وابتسمت.. سأخبر «عدوان» بذلك عندما اعود الى بلدتي. سيضحك كثيراً.. وسيرثي لحالي. فقد كان احسن حالاً مني. لقد كان «عدوان افندي» حقيقة. وكانت القبيلة تعزه وتكرمه وتدعوه الى الولائم. فقد كان عدوان معلماً واماماً ومأذون انكحة ومكفن أموات

وراويـة وكـل شيء . . فلما انتقـل وعينوني مكانه اثقل كاهلي بما ترك . وجعلني انـزل من «حسن افنـدي» الى «معلم حسن» . . وكان يتكلم اللهجة البدوية كجمعة وسليمان وصويلح . . ويروى انه لم ينقصه شيء . ليتني تتلمذت شهراً أو شهرين على يديه لارشدني وما وقعت لي هذه المشاكل في القبيلة . ولكن لو اخبرني ان المعلم يغسـل الميت ويكفنـه ويصـلي عليـه فهل اجرؤ على غسل صويلح وتكفينه؟ ان لعدوان قلباً كالحجر . لا يخاف . وهو عاشق جريء فقد اخبرني بعد ان شكوت له هموم الوحدة والشوق المزمن الى النساء . . وبعد ان صحت متـذمـراً كيف كان يقضي السنـة كلها دون أن يعـرف امرأة . . يقبل امرأة . . يحدث امرأة . . فاخبرني انه كانت له عشيقة من بدو القبيلة . وحكى لي قصـة تعـارفهـما فقـال : هل تسمـع يا حسن بأثـريـاء الحرب؟ أنا من عشاق الحرب . صدقني . كان ذلك يوم اثنين من شهر حزيران . وكان الدرس الاول قد انتهى . فاشعلت السيجـارة وفتحت الـترانـزستـور واتجهت نحـو المحطـة «رقم واحـد» لقـد نشبت الحـرب على جبهـة سينـاء . فذعرت . واخبرت الطلاب بذلـك . . فأسـرعـوا وامتطـوا حميرهم . واقفلت الغـرفـة وحملت الـترانزستور واتجهت نحـو المحطـة التي تبعـد كما تعلم عشـرات الاميال عن المدرسة لاعود الى البلدة . . وفي الطـريق وانـا اسمـع المـوسيقى العسكـريـة وجدتها تجمع الحطب . امـرأة بدويـة طويلة سمـراء . قلت يا عدوان ، سنتـان ولا تعـرف بدوية . . الحرب قد نشبت ومن يدري ، هل تعيش ام تموت؟ ومن يدري هل تعـود الى القبيلة او لا تعـود؟واقـتربت منهـا . حييتهـا . . ثم صافحتها ولم اترك يدها . . بل سحبتها الى الظل بجوار صخرة عالية . . وبعد المرة الثالثة سألتها عن اسمهـا فقـالت : حسناً يا عدوان افندي . ما اطيبكم يا رجال المدينة . . ويا لحسن حظ نسـائكم ! » ولمـا عدت بعـد الحـرب الخـاطفـة احضرت لها منديلاً وزجاجة عطر . . وصارت كلما تمر من جوار المدرسة وهي تحمل الفأس والحبل لتحطب افتح الترانزستور بعد ساعة او اقل واقول «اف . . لقد نشبت الحرب

من جديد على القناة.» فيهرع الاولاد الى حميرهم ثم اتجه الى الصخرة وانا اردد «يا عدوان يا عاشق الحرب!» وقد بكت اخيراً حين لقائنا الاخير لما علمت انني اترك القبيلة للابد. واهتمت ان تعرف اوصاف المرأة التي سأعشقها في المدينة.

ومنذ حكاية عدوان وحسنا زاد تعلقي بالترانزستور. لقد تعلقت كثيراً به. فصار صديقي ورفيقي وأملي. كلما خطرت صبحة على بالي افتحه. وانتظر الخبر المرجو.

وعندما نشبت مذابح ايلول قلت: قربت!

وعندما غرقت السفينة قلت: دنت!

وعندما احترقت بيروت قلت: نشبت!

وحتى اليوم.. ماحدث شيء. اضطجع في المساء على سريري. اشعل السيجارة. اعد نجوم السماء. اشتم سليمان. احلم بصبحة.. واغنية «بالله تصبوها القهوة وزيدوها هيل» وارى نفسي من «النشامى».. وعندما يصل الحلم الى الذروة افتح الترانزستور.. واشتم.. لماذا يشترون الاسلحة ويكدسونها؟!!

الحياة لا تطاق. لا شيء سوى مواكب التلاميذ والحمير. وحسن افندي الذي صار معلم حسن. والوزارة التي نسيتني هنا.. لماذا لا تنشب الحرب؟ احداث كثيرة تبشر بنشوبها. لا بد ان يقطع المذيع برنامجاً ما ويقول: «أيها المواطنون انتظروا بياناً هاماً!» وتأتي موسيقى عسكرية. وبعد لحظات: «أيها المواطنون نحن بانتظار بيان هام جداً». وموسيقى عسكرية. وبعد بلحظات «في تمام الساعة.. قام العدو......» واتجه الى المرعى وأجد صبحة مع غنماتها.. ويتغير كل شيء.. ويصبح للحياة معنى.. وللحرب معنى.. وللبقاء معنى.

أيها المواطنون . .
متى تنشب الحرب؟

آب ١٩٧٧

المنعطف

جلست وزوجتي في المقعد الخلفي وأمرت سائق سيارة الاجرة، بلطف، ان يتحرك. ارتفع هدير المحرك ثم ازداد ارتفاعاً وانسابت سيارة المرسيدس تنهب الطريق الصحراوي. حاولت ان اشغل نفسي بشيء ما.. فكرت بصحيفة الامس التي لم اقرأها. انحنيت لاخرجها واثناء فتحي للحقيبة التقت نظراتي بنظرات السائق في المرآة التي أمامه. كان كعادة سائقي سيارات الاجرة يحاول ان يتفرس بوجهينا. حاول ان يوهمني انه ينظر الى الشاحنة الضخمة التي تسير وراءنا. لم أحاول احراجه بل أخرجت الجريدة من الحقيبة وأنا اسمعه يقول: صوت هذه الشاحنات مزعج ودمها ثقيل على الشارع!!. لم أجبه. ويبدو أن زوجتي تظاهرت بعدم الاكتراث اذ لم تعلق كعادتها على ما سمعت. اسندت ظهري وهممت ان ابدأ بالقراءة. شعرت ان جلستي غير مريحة فغيرت موقع قدمي وحركت ظهري فاضطرت زوجتي ان تبتعد قليلاً لتفسح مجالاً لجريدتي.. واثناء تحركها ضبطتها وهي تنظر شزراً لجريدتي. لم افاجأ. قرأت عناوين الجريدة: «ما أشبه الليلة بالبارحة.. الحالة تذكرنا بما قبل حرب اكتوبر». المراقبون: مشروع شارون يعيد الى الاذهان وثيقة جاليلي». «جنرال اسرائيلي متقاعد يقول: العرب يستعدون للحرب ويتظاهرون بالضعف حسب خطة روسية!». «اسرائيل تهدد بالحرب

الـواقية». «بيغن يوافق على مشروع سلام وزير خارجيته». «الشرق الأوسط على حافة منعطف خطير!».

اثار العنوان الاخير انتباهي. ترى من يملك الفرامل؟ فكرت ان اسأل السـائق ان كان قد فحص فرامـل عربتـه قبـل السفـر ولكني تراجعت بسـرعة فسائقو سيارات الاجرة يحبون الثرثرة وويل لي اذا سألته فعندها سيحاضر عن سيـارتـه ونوعها والشركة المنتجة وعن ماضيه في قيادة السيارات وبطولاته على الشارع و. . و. . وأنا ـ بطبعي ـ أكره الثرثرة وتوخزني الكلمات الزائدة فيما اقرأ فكيف فيما أسمع رغماً عني!؟

حاولت ان اعـود الى جريـدتي واقرأ أخبارها بالتفصيل. فالحالة «مش ولا بد» وستنفجر قريباً. وشعرت بالعرق البارد يبلل جبيني. هل ستعود ايام ما بعد الايام الستة؟ هل سينتظر وزير الخارجية مكاملة تلفونية من القاهرة ويحقق حلمه الصيفي القديم؟

لعنت نفسي عندما وصلت الى هذه الدرجة من التفكير. انصرف أيها الغـراب! يلعن. . . . . . اليـوم. ثم قلت لاطمئن نفسي: العـربي متشـائم بطبعـه «من كثـرة ما أكلهـا». وتـذكـرت تعليق صديقي خالد على جملة «الله يعطينا خير هالضحك» فهو يرى ان العربي يقول هذه الجملة بعد ان يضحك وتصفو روحه فيتذكر مآسيه ويرى انه لا يحق له ان يضحك. . حتى الضحك كثـير عليـه. . ليس لنـا. . فيعـود الى واقعه ويقـول: «الله يعطينـا خير هالضحـك!». وهـذا ما حدث لي. تشـاؤم مبالغ به. عجلة التاريخ لن تعود الى الوراء. . ؟؟!!

وشعـرت انني كشفت عن تفكـيري ولكن السـائق التقطهـا ولم يمهلني لاعتذر فجلس جيداً وابتسم كممثلي السينما وقال: «السائق الماهر يعرف كيف يوجه العربة. يعرف متى يسرع. . ومتى يسير ببطء. . ومتى ينحرف يميناً أو يساراً. . ومتى يتراجع الى الوراء. والسائق الماهر. . . .».

ـ كفى . . كفى . . فتجيب :
ـ حسناً . لقد سألتني ولا تريد ان تسمع بقية الجواب .
فقالت زوجتي بصوت ضعيف : لا تؤاخذه!
ـ فنظرت اليها نظرة حادة لتعود الى صمتها . . لكنها تابعت : هذه الجملة مشهورة . كلما ناقشته قال : كفى . . كفى . . فهمت!
فابتسم السائق وايقنت انه فهم أكثر مما يجب . ملعون دين النساء . . الحمصة لا تنبل تحت لسان الواحدة منهن! ولمت نفسي . وتشاغلت بطي الجريدة . طية . . طيتين . . ثلاث طيات . وحشوتها في الحقيبة . ما أقذر ورق الجرائد . كل القاذورات في هذه الصحف الصفراء . اخص!
حاولت ان اشغل نفسي بالنظر عبر الشباك . . رمال الصحراء الصفراء والجبال الجرداء . . منظر كئيب . نحن اولاد هاجر . . نحن ابناء الصحراء . أف . . لا استطيع النظر فترة طويلة في هذه اللوحة الدائمة التشرنة . نظرت الى ساعتي . سيكو؛ ل.م . اوتوماتيكية ، ٢٣ حجر ، الجمعة ، ١٦ ، منذ هارون الرشيد لم يصنع العرب ساعة . اللهم اخز الشيطان! أيها السائق هل يمكن ان تفتح المذياع لنسمع اخبار التاسعة؟!
ـ عفواً . المذياع معطل!
ـ وهل سنبقى طيلة ٥ ـ ٦ ساعات دون سماع اخبار؟
ـ لا جديد يا سيدي!
ـ المنطقة على حافة منعطف خطير!
ـ ومتى كانت في طريق سهلي!
ـ ولكن هذه المرة تختلف عن غيرها من المرات السابقة .
ـ العرب كثيرون وينجبون بغزارة كالارانب .
ونظرت الى زوجتي فقد تذكرت الاطفال الثلاثة الذين تركناهم في البيت . ما مصير اولادنا؟ وماذا سيحدث لهم؟ . لقد أصرت «عايدة على ان

تأخذهم معها وعارضتها بشدة. ولن تغير رأيها مهما كانت الاوضاع.. فهي عنيده مثل امها. «طب الجرة على ثمها تطلع البنت لامها». ولكن لن ينفعها عنادها. هذه المرة ستبكي دماً.. اللعينة تتظاهر «كأنه ما عند خريش خبر». هل هي راضية وقانعة؟ تكاد تقتلني بهذا الايحاء! إخص! هل أنا رجل؟! وتحركني جملة صغيرة. مثل «ينجبون كالارانب»! سوف نصل.. وترى..!!

- كم تستغرق المسافة الى الناصرة!

- لقد ذكرت - حضرتك - من ٥ - ٦ ساعات. ثم ان السفر يتوقف على مشيئته تعالى.

- لكنك سائق ماهر!

- وهل أنت مضطر للوصول مبكراً حتى نسرع أكثر؟

- أفضل.

- ولماذا لم تسافر بالطائرة من ايلات الى حيفا؟

- ان موعد الطائرة. بعد الظهر.

- حتماً ستصل قبلنا!

- لم أستطع الانتظار الى ما بعد الظهر.

- يظهر ان السفرة هامة.

- جداً.

- والسيدة تبدو مضطربة!

نظرت الى زوجتي التي تحاول الابتسام لتخدع السائق.. ولكني سررت لملاحظته. اللعين. لقد عرف أكثر مما يجب. بعد قليل سيعرّينا كآدم وحواء. هل أقول له «لا شيء يدعو للاضطراب!». ولماذا الكذب والخداع؟ ملاحظة السائق لصالحي. ومع ذلك يجب الا اسمح له ان يعرف أكثر.. فسائق التاكسي محطة أخبار دائمة البث!!

وحـركت زوجتي عجيـزتهـا فتضـايقت. المقعـد الخلفي يتسـع لثـلاثة
ركـاب. لها مقعـد ونصف ولي كذلك. لكنها استبدت بمقعدين حينما حركت
عجيـزتهـا. انهـا تحاول ان تبـدو أكـبر مما هي. حركت يدي ولكزت خاصرتها
بكـوعي فتأوهت وفهمت انهـا اخـذت من المقعد أكثر من حصتها فتراجعت.
عليهـا ان تعلم ان للذكـر مثـل حظ الانثيين. أما الآن وفي عصرنا فليكن مثل
حظها.. نظرت الى عيني السائق في المرآة فوجدته يتلصلص!

ـ انتبه! الطريق وعرة.

ـ اتكـل على الله! محسـوبـك يعـرف الطـرق عن ظهـر قلب من جبل
الشيخ الى شرم الشيخ فأنا على الشارع منذ خمس عشرة سنة ليل نهار، صيف
شتاء. «والمكتوب ما منه مهروب»!.

تظـاهـرت بعـدم الاكـتراث بتعليقـه. تنـاولت مقـراض الاظافرة من
جيبي. بدأت بتقليم أظـافـري.. تذكرت انني قلمتها في الصباح حينما كانت
زوجتي تضـع ملابسهـا وحـاجـاتهـا في الحقيبـة. بحثت عن نتـواءات لحميـة
وداعبتها بالمقراض. وسمعته يقول: هل السيدة من الناصرة؟

ابن الكلب. لماذا يسألها؟ لقد اختار الجبهة الضعيفة.

تركت زوجتي خيطان الصوف وقالت: نعم!

تنحنحت حتى لا تقـول له أكثـر من ذلك. فأنا اعرفها. سوف تقول:
نحن من الحـارة الشـرقيـة. تزوجنـا قبـل عشر سنوات. زوجي يعمل موظف
استقبـال في فنـدق «ملكـة سبأ» في ايلات. يربح في الشهر ثلاثة آلاف ليرة ما
عدا البخشيش. يدعي انه مثقف. يجبرني على تعلم حروف الهجاء.
وقد...

ـ وزوجك؟

انفجرت قبل ان تجيب زوجتي: هل انت سائق أم شرطي تحقيق؟

ـ العفو يا سيدي. لا تغضب فالطريق طويل ويجب ان تحملني او أحملك!

ـ السيارة تحمل ثلاثتنا.

ـ ألا تعرف حكاية «أتحملني أم أحملك؟»؟

ـ كفي.. كفي.. أعرفها.. أرجوك.. اهتم بعجلة القيادة. أرجوك لا تزعجنا فنحن قد اخترنا سيارة أجرة خصوصية كي لا ننزعج!

ـ قبل قليل قلت انك اخترت سيارة الاجرة لانك لا تستطيع الانتظار الى ما بعد الظهر.

ـ لكني لم أوقع شهادة الاعتراف أمامك يا شرطي التحقيق.

ابتسم وقال: يظهر ان القضية ساخنة.

ـ ويظهر ان معلمك قد علمك ملحة «أتحملني أم أحملك» ولم يعلمك «لا تتدخل فيما لا يعنيك!».

ـ لكننا رفاق درب!

رفاق درب! كم مرة قلتها لها! لا تريد أن تفهم!

ـ بعد قليل سنفترق.

تمتمت زوجتي محتجة بسرعة: لست نادمة.

ـ وقال السائق: بالحفظ والامان سيدي.

ولجأت الى الصمت. وعدت أنظر الى رمال الصحراء الصفراء وجبال النقب الجرداء التي لها اشكال حيوانات منقرضة. هل تفهم زوجتي ما معنى الحيوانات المنقرضة؟ وكيف تفهمها ما دامت مصرة على هذه العداوة الدائمة مع حروف الهجاء. وعلى هذه الغيرة من كتبي ودفاتري. وتذكرت انها قالت لي قبل سنوات عندما شاهدت هذه الجبال لأول مرة: انظر يا سميح كيف مسخ الله الكفار!

وارتجفت العربة واهتزت اجسامنا وشتم السائق ببذاءة مصلحة

الشـوارع التي لا تهتم بترميم الشـوارع وتـرقيعها وسد الحفر. فقلت: السائق الماهر يعرف كيف يتجنب الحفر!!

ـ والسرعة يا سيدي من الشيطان.

ترى هل تسرعت في اتخاذ القرار؟ وهل السرعة ستقودنا الى حفرة عميقة؟

وأضاف السائق: لولا مهارتي لاصاب السيارة عطب!

وفكرت. اذا أسرع السائق الماهر ونزلت سيارته في حفرة، يعرف كيف يخرجها سليمة.

والتفت الى زوجتي فوجـدتها تراقب ياقـة قميصي.. فأصلحتهـا. ـ تال.. وتكابر وتقول «لست نادمة!».

وقـال السـائق: المال الحلال لا خوف عليه. لقد دفعت ثمنها من عرق جبيني. والله يحب الحلال.

السـائق يعـرف. يبـدو انـه يعـرف. لا شك انه يريد ان يقول «أبغض الحلال الى الله الطلاق!».

ـ أيها السائق! اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب!

ـ لكن هذه الحكومة لن تبقى لنا حتى التنك!

ذكي. ينوي «ان يحك لي على بيت جرب»!

ودخلنـا في أحـاديث السيـاسـة. البطـالـة التي في الأفق. الاجـراءات الاقتصـادية الصارمة. الغلاء الفاحش. التسلح. الرياء الامريكي. الزعامة العربية. جنيف. نيويورك. وفجأة صرخ السائق: يوه.. إحذر.. رحنا.

ونظـرت امـامي مذعـوراً واذ نحن بمنعطف حاد وشاحنة ضخمة تتجه نحـونـا.. وعن يميننـا واد عميق وعن يســارنـا منحدر صخري حاد. ومؤشر ساعة السرعة يشير الى ما فوق المائة.

وصرخت زوجتي «من قحف رأسها»: يا ساتر! ومدت ذراعيها العاريتين وطوقتني.. ضمتني ورمت رأسها على كتفي. وأغمضت عيني ورميت رأسي على كتفيها. وسمعت زوجتي رغم ارتفاع دقات قلبينا تتمتم «الاولاد.. فداء، عمر، سوسن!!»....

وكالصوت الخارج من بئر عميقة سمعته يقول: الحمد لله. سليمة.

ورفعت رأسي. وجدت السيارة قد أوقفت. والشاحنة قد مرت. وتلاقت نظراتي ونظرات زوجتي. حدقنا ببعضنا فقالت:

ـ هل ستساعدني في غسل الصحون؟

ـ أجل سأساعدك.

ـ وهل ستنظف السجاد من الغبار؟

ـ سأنظف!

فابتسمت زوجتي فسألتها: هل ستتعلمين حروف الهجاء؟

ـ وسأقرأ الكتب.

ـ وهل ستكفين عن الغيرة من جريدتي؟

ـ سأشتريها لك ولي.

والتحمت شفاهنا بقبلة طويلة.

وعندما انفصلت الشفاة مسحنا دموعنا. ونظرت الى السائق فوجدته يراقبنا مندهشاً فقلت: ايها السائق عد أدراجك فلسنا بحاجة بعد الى القاضي الشرعي!

١٧ ايلول ١٩٧٧

حكايا ..
ما بعد الايام الستة

١ ـ اللحم النيء

كان حسن ابو زهرة نائماً نوماً عميقاً . فقد كان النهار حاراً . والتعب وصل الى حده وزاد. فالعمارة كبيرة. والمتعهد قال: يجب ان ننهي صب السطح لذلك ما عاد حسن ابو زهرة الى بيته مساء واكل لقمتين حتى تمدد ونام . . .

في وسط الليل، سمعت زوجه دقة وقحة على الباب . . قالت في نفسها: كفانا الله الشر! ودفنت رأسها بجوار حسن، تحت اللحاف، وضمته!

وبعد ثوان سمعت الدقة، ثانية. اقتربت سميحة من حسن أكثر ولعب الفار في عبها . حاولت ان تطرد الخاطر السيء وذكريات ذلك العام النحس عندما أخذوه من فراشها . . لكن الطرق ازداد عنفاً على الباب فهجمت كل الذكريات النحسة عليها .

قال حسن ابو زهرة: أيوه!

ـ أفتح!

تساءل حسن ابو زهرة: هل ستنشب الحرب؟ . . وسار نحو الباب .

دخل رجال الشرطة .

ودّع سميحة والاولاد.

قال في نفسه: لا بد من ان الحرب قريبة الوقوع. ثم طرد خاطر الحرب من رأسه.. وقال: قد يكون الامر هاماً.. واستدرك.. وتافهاً.

في الصباح ناداه الحارس.. فخرج حسن ابوزهرة من الزنزانة ١٩ وجلس امام المحقق.

ـ لمن شرم الشيخ يا حسن؟

ـ لاصحابه.

ـ ومن اصحابه

ـ كل العالم يعرف اصحابه.

ـ ولمن القدس يا حسن؟

ـ أهذا سؤال يحتاج الى جواب؟

ـ بالنسبة لي: لا يحتاج.

ـ وأنا أيضاً!

ـ هل تحب الوحدة يا حسن؟

ـ جداً.

ـ اذن لماذا تعارض في توحيد القدس!

ـ وهل سألتم اصحابها؟

ـ نحن اصحابها.

ابتسم حسن ابو زهرة. فضرب المحقق الطاولة بقلمه وصرخ: الا تعترف!!

ـ وما التهمة؟

ـ أنت عدو.. عدو.

ـ لا تخدع نفسك.

ـ هل انت بحاجة الى ستة ايام اخرى كي تصدق؟

ـ وهل أنت مدير شركة تأمين أم محقق؟
ـ أرى أنك ثرثار، أي الصحف تقرأ وأي الاذاعات تسمع؟؟
ـ وهل يهمك؟
ـ طبعاً.
ـ ولماذا نتحدث صباح مساء عن دمقراطية الـ. . .
ـ يجب ان تفهم يا حسن.
ـ مـــاذا؟
ـ ان لك زوجة وأولاداً. .
ابتسم حسن وقال: وأحبهم.
ـ وأنهم بحاجة الى طعام!
ـ واعمل في البناء لاشتري الخبز لهم.
ـ اذن. . افهـــم!
صمت حسن ابوزهرة برهة. . ثم عادت الابتسامة الى وجهه وقال: يا حضرة الجاويش افهم!
ـ ماذا؟؟
ـ ان الذي يأكل لحماً نيئاً سيبقى معرضاً لوجع البطن!!

٢ ـ الكرشة

كان حسن اغبـاريـة لا يعرف من كلمات اللغة العبرية عدد اصابع يديـه. ولكنـه يذهب صبـاح الاول من كل اسبـوع الى تل ابيب ليعمـل في مصنع الطوب ولا يعود الى ام الفحم الا مساء الجمعة.
وقبل اسبوع اقترحت عليه ام الاولاد ان يشتروا كرشاً. فالكرش زهيد الثمن. . كثـير الـبركـة. يشبـع العـائلة ويـزفرها فاقتنع حسن برأيها وأوصى

سعيداً، اللحام، ان يحفظ له الكرش في يوم السبت القادم.

وهذا ما حدث.

نشلت خديجة الكرش من الدست ووضعته في اللجن. وقبل ان يبرد لم يبق شيء. لحسوا اصابعهم.. والقطة لم تجد ما تلحسه في اللجن.

وفي صباح الاحد حمل حسن سلته وركب في السيارة المسافرة الى تل ابيب. ومن المحطة المركزية ركب سيارة اجرة صغيرة كي يصل الى مكان قريب من مصنع الطوب.

في الطريق..

كان ركاب التاكسي يتحدثون.. وكان حسن يفكر بعدد الحجارة التي سيضعها اليوم.. ففي يوم الاحد يعمل أكبر كمية من الحجارة. فالاحد يأتي بعد يوم الراحة. وكيف اذا أكل زفراً يوم السبت؟!

وفجأة وقفت السيارة.. وتعجب لانها تقف امام مركز الشرطة.. نزل كل الركاب بسرعة منها.. وبقي، وحده، لا يدري ما الامر.

اقترب شرطي من حسن وسأله: ما هذا..

كان حسن يعرف «ما هذا» في العبرية.. ويعرف ان يسأل أيضاً.. «ماذا تريد؟»

أشار الشرطي الى السلة التي سقط عنها الغطاء.

ابتسم حسن! وقال في نفسه، ما زالت خديجة تفضلني على الاولاد. ويظهر انها قد خبأت «ام المصاري» ووضعتها في الزوادة!!

٣ ـ الحرب والسلم

الصفحة الاولى من جريدة صباح هذا اليوم كانت تحمل التاريخ التالي.. اليوم؟ من شهر؟ بعد حزيران.. أما الاخبار فكانت كما يلي:

ـ قال وزير الدفاع: نحن أقوياء.
ـ صرّح ناطق بلسان الحكم العسكري ان انواعاً جديدة من الزراعة قد استعملت في «المناطق المدارة».. وان خمسة رجال قد أبعدوا الى ما وراء النهر. وان ثمانية قد نفوا الى قلب سيناء.. وان ثلاثة بيوت قد نسفتها قوات الامن وان اربعة طلاب قد أدينوا بتهمة اهمال دروسهم والتدرب على استعمال الاسلحة..
ـ قذائف كتيوشا من الأراضي اللبنانية على كيبوتس.....؟
ـ قال وزير المواصلات لا يمكن ان ننسحب من القدس وقطاع غزة وشرم الشيخ وهضبة الجولان.. و..
ـ اذاع ناطق عسكري ان لغماً انفجر في سيارة عسكرية فدمرها ولم يصب أحد من ركابها بأذى.
ـ قالت رئيسة الوزراء في اجتماع طلابي: ان حرب الايام الستة هي آخر الحروب في المنطقة!
ـ قال وزير الشرطة: انه قلق بسبب وضع اليهود في الاتحاد السوفييتي!!

٤ ـ معلم الجغرافية

كان حسن الحامد يعرف النتيجة.. ولكن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان. فعندما وصلته الورقة لم يفاجأ.

فقبل أسبوع وكعادته، في صباح كل يوم، دخل حسن الحامد صفه في المدرسة «المأمونية» في القدس «الموحدة» وبدأ يلقي درس الجغرافية امام الطلاب. وحسن الحامد معلم جغرافية أصيل. فمنذ عشرين سنة وهو يعلم الموضوع. ولم يشك أحد في مقدرته ومعلوماته ـ وهو يحفظ موضوعه عن ظهر قلب كما نحفظ الفاتحة.. وخاصة اذا كان عن جغرافية بلادنا.. فعندها

يتحول الدرس الى عشق ومحبة.

ولكن ماذا يعمل حسن الحامد مع كتاب الجغرافية الجديد؟

بدأ حسن يشرح الدرس والمرارة لا تفارق لسانه. فجأة رفع تلميذ اصبعه وسأله؟

- قرأت في الكتاب يا استاذ عن مدينة اسمها «صفات» فأين تقع يا استاذ؟

- قال حسن الحامد بمرارة: في الجليل.

فعاد التلميذ يستفسر: وهل هي بعيدة عن «صفد»؟

- هي.. هي.

- ولكني لا أفهم لماذا غيرّ هذا الكتاب اسمها؟

وتشجع ولد آخر وسأل: هل الخليل هي مدينة سيدنا ابراهيم؟

قال حسن الحامد: نعم.

قال الولد: ولكن الكتاب يقول: حبر ون!

ولم يستأذن التلميذ الثالث عندما سأل: والله.. هذا عجيب. في الصفوف الدنيا تعلمنا ان مرج ابن عامر يقع بين جبال الجليل وجبال السامرة واليوم: يقع عيمق يزراعيل بين جبال هشمرون وجبال الجليل.

وقال تلميذ رابع: وأنا لا أدري ان جبال جلعاد ومؤ اب والسعير تسمى جبال اسرائيل الشرقية.

وبصق حسن الحامد الماء من فمه..

٥ ـ عندما تفقد الكلمات معانيها

لو ان نقادنا شاهدوا اليوم صديقي حسن ابو طبيخ لقالوا عنه: لقطة من مسرح اللامعقول.. لكن عندما شاهدته امه، دقت على صدرها وخافت

على عقـل ولـدهـا. فعنـدمـا دخلت كعـادتي عليـه عصـر هذا اليوم لنلعب الشطرنج وقلت له: السلام عليكم يا حسن!

أجاب: يلعن أبوك.

ـ ولما غطى الغضب وجهي وحـاولت ان أعـود، قال: انت لا تريد ان نتفاهم. . أنت عبيط.

ـ قلت: ماذا؟

ـ قال وو. . وو. . وو. . وو.

ـ حسن ماذا أصابك؟

ـ يو. . يو. . يو. . يو.

ـ هل أنت مريض؟

ـ ها ها ها ها.

اقتربت منه وقد حيرني أمره. .

ـ حسن . . أنا سعيد. . صديقك.

ـ أشار برأسه: لا.

ـ واحبك.

ـ ها ها ها ها ها ها.

هممت أن أخرج فصرخ: أنت لا تريد أن نتفاهم؟

فرحت لأنه عاد يتكلم فعدت. .

ـ خبرني ماذا أصابك؟

ـ لا شيء.

ـ ولكن. .

ـ أنا طبيعي. .

ـ لكن. .

ـ هذه حقيقة.

ـ أية حقيقة؟

ـ هل تحبني؟

ـ طبعاً.

ـ اذن. أنت تكرهني!

ـ أعوذ بالله.. ماذا أصابك؟

ـ هوّن عليك.. لماذا قلت عندما دخلت: السلام عليكم يا حسن..؟!

ـ ماذا أقول..

ـ يا غبي ان كلمة السلام في عصرنا وفي بلادنا معناها «الحرب»..

ـ لا تتفلسف!!

ـ ألا تسمع ـ ألا تقرأ الصحف.. حرب الايام الستة كانت من أجل السلام.. بقاء القوات الاسرائيلية في شرم الشيخ.. وغزة.. وسيناء. والضفة الغربية والجولان من أجل السلام ـ القدس «موحدة» من أجل السلام.. فان قلت لي بعد اليوم «السلام عليكم» فمعناها...

«بروخ هبا»
مار سادات

«الــــف»

«ويكـون في آخـر الايـام ان جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري اليه كل الامم. وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعـد الى جبـل الـرب الى بيت اله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب فيقضي بين الأمم.»

«سفر: أشعيا. اصحاح: ٢، عدد: ٢ ـ ٤»

ولم يتابع الكاهن القراءة.

«نون»

قال معلم التاريخ لطلاب الصف السابع الابتدائي:
وغضب البابا جريجوري السابع..

ـ وخاف الملك هنري الرابع . .
ـ وقام هنري الرابع برحلة الى كانوسا .
ووقف حافياً عاري الرأس على عتبة قصر البابا . يستجدي . .
ويستجدي . . ويستجدي . .
وكانت الثلوج تتساقط وتبيض وجه الارض . .
وفي اليوم الثالث غفر له .
وعاد هنري الرابع الى شعبه .
واستقبله الحفاة الجائعون .

وكان ذلك في شتاء عام ٧٧ بعد الالف .
أيها الطلاب! اقرأوا المادة بتمعن في كتاب «تاريخ العصور الوسطى» .

«واو»

اذاعة فلسطين من القاهرة .
اعلنت ساعة الجامعة الثامنة صباحاً . واليكم نشرة الاخبار .
ـ القدس ـ
استقبل صاحب الفخامة افرايم كتسير رئيس دولة اسرائيل ضيفه الكبير سيادة الرئيس محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية بمطار بن غوريون الدولي وقد وقف الرئيسان اجلالاً وهما يستمعان للنشيد القومي المصري و«الله زمن يا سلاحي» يعزفه خيرة جنود «زاهال» والنشيد القومي الاسرائيلي «هتكفاه» ومعناه «أمل السلام» الذي كُتب خصيصاً لهذه المناسبة .

«١٩ تشرين الثاني ١٩٧٧»

«الـــراء»

في قداس الأحـد، العشـرين من تشـرين الثـاني لعـام ١٩٧٧ قرأ أمير الكنيسة هلاريون كبوشي في منفاه:

ـ «فقـالـوا لهما لا نستطيـع ان نفعـل هذا الأمـر؛ ان نعطي أختنا لرجل أغلف، لأنه عار لنا، غير اننا بهذا نواتيكم. ان صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر نعطيكم بنـاتنـا ونأخـذ لنـا بنـاتكم ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً؛ وان لم تسمعوا لنا ان تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضي.

فحســن كلامـهـم في عيني حمور وفي عيني شكيم بن حمور؛ ولم يتأخــر الغـلام ان يفعـل الامـر لأنـه كان مسروراً بابنة يعقوب؛ وكان أكرم جميع بيت أبيـه. فأتى حمور وشكيم ابنـه الى باب مدينتهـما؛ وكلما أهل مدينتها قائلين: هؤلاء القـوم مسـالمـون لنـا فليسكنوا في الأرض ويتجروا فيها. وهوذا الارض واسعة الطرفين أمامهم. نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا. غير انه بهذا فقط يواتينا القوم على السكن معنا لنصير شعباً واحداً. بختننا كل ذكر كم هم مختـونـون. ألا تكـون مواشيهم ومقتنـاهـم وكـل بهائمهم لنـا. نواتيهم فقـط فيسكنون معنا.

فسمـع لحمـر وشكيم ابنه جميع الخارجين من باب المدينة. واختتن كل ذكر. كل الخارجين من باب المدينة.

فحـدث في اليـوم الثـالث اذ كانـوا متوجعين؛ أن ابني يعقوب شمعون ولاوي أخوي دينه أخذا كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر. وقتـلا حمور وشكيم ابنـه بحـد السيف وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة.».

«سفر التكوين. اصحاح: ٣٤ عدد: ١٤ ـ ٢٥»

«ألف . . مرة ثانية»

اذاعة فلسطين من القاهرة.

كل عام وانتم بخير.

قام صباح اليوم سيادة الرئيس المؤمن محمد أنور السادات بتأدية صلاة عيد الاضحى المبارك مع ابناء الشعب الفلسطيني في المسجد الاقصى المبارك وقد رافقه سيادة عمدة أورشيليم القدس مستر كوليك وأهدى له ثلاثة شموع أثرية تدل على علاقة الشعب اليهودي بأورشيليم وقال له: لتنسني يميني ان نسيتك يا أورشيليم».

«٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٧»

وفي أنبار لوكالات الانباء الاجنبية ان عشرة آلاف جندي اسرائيلي يحملون مدافع «عوزري» وبنادق «جاليل» ومجموعة من طائرات الهيليوكبتر الاسرائيلية التي ما زال يذكرها سكان «نجع حمادي» قاموا بحراسة الرئيس اثناء الصلاة في المسجد الاقصى في القدس المحتلة. وقد لوّح الرئيس للطيارين والجنود بيديه شاكراً وهو يحاول ان يبتسم.

«إذاعة لندن، ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٧)

وقد منعت السلطات الاسرائيلية المسلمين من تأدية صلاة عيد الاضحى في المسجد الاقصى محافظة على حياة الرئيس.

ويقول مراسلنا في مدينة البيرة في ضفة نهر الاردن الغربية المحتلة ان

وجهاء العرب قد قاطعوا الصلاة في الاقصى واختاروا مسجد الرئيس عبد الناصر في البيرة لتأدية صلاة العيد.

«اذاعة مونت كارلو، ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٧»

«لام»

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا.
وهب لنا من لدنك رحمة.
إنك انت الوهاب

«سين»

وعبر بطل العبور قناة السويس.
وعبر بطل العبور خط بارليف.
وعبر بطل العبور سيناء.
ـ وعبر بطل العبور شوارع القدس العتيقة.
ـ وعبر بطل العبور باب المسجد الاقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة.
وعبر بطل العبور باب الكنيست.
وعبر بطل العبور باب قصر رؤساء اسرائيل.
اللهم يارب بارك عبدك محمد أنور السادات الذي عبر البوابات السبع وينتظر العبور الثامن.. وهو العبور الكبير.

«من صلاة مؤمن من مدينة الاسماعيلية صباح ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٧»

«ألف . . مرة ثالثة»

وضع سيادة الضيف الكبير الرئيس محمد انور السادات اكليلاً من الورد على النصب التذكاري لشهداء اسرائيل في حروبها مع اعدائها.

«دار الاذاعة الاسرائيلية من اورشليم القدس في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٧»

وصلى سيادة الرئيس المؤمن قائلاً:

«اللهم يا رب ابراهيم واسحق واسرائيل اغفر لنا خطايانا. فقد اعتدى ابناء امتك هاجر على شعبك المختار وقتلوا غدراً عدداً من ابنائهم. فسخطت علينا يا رب وهزمتنا في حزيران. اللهم لا تحملنا ما لا طاقة لنا به. واغفر لنا وارحمنا. انك انت التواب.».

واغرورقت عينا الرئيس بالدموع والتفت الى مضيفه مستر مناحم بيغن وقال «مناحم. . لا حرب بعد اليوم!» ثم عاد الرئيس المؤمن لصلاته «بسم الله. . اللهم عافنا واعف عنا. اللهم لا تحملنا وزر اعمالنا».

«نبأ لم تذعه وكالة انباء الشرق الاوسط المصرية في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٧»

«دال»

قالت مسز غولده مئير لخواجة سادات: أنت تستحق تقدير الاطفال.

قال الرئيس السادات لخواجه شارون: ان شاالله ح تزور مصر.

قال الرئيس لمستر ديان: موسى. لا تقلق. كل شيء سيسير على ما يرام.

وبعث أحد الفنانين الاسرائيليين للسيدة جيهان السادات عقيلة ضيف اسرائيل مع الوفد المرافق لسيادته والهدية حمامة رسمها من وحي الزيارة.

«الصحف الاسرائيلية في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٧»

علقت سيدة مصر الاولى جيهان السادات عندما شاهدت لوحة الحمامة: «اليهود اقوياء.. كيف عرفوا ان حمودي بدون حمامة!».

«صحفي مصري محروم من الكتابة في الصحف»

وصرح مدير الاذاعة الاسرائيلية: لقد نجحت الاذاعة نجاحاً تاماً لم يسبق له مثيل في تغطية زيارة الرئيس السادات.

«دار الاذاعة الاسرائيلية من اورشليم القدس ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٧»

- مثل نجاحها في تغطية حرب الايام الستة.

«صحف القدس المحتلة»

«الف... خازوق»

قال أحد أفراد جماعة جوش امونيم الاستيطانية العنصرية:
ان مصر واسرائيل تعانيان دائماً من العالم العربي. فقد خرج ابناء الصحراء قبل ١٤ قرناً وقضوا على الاستقلال المصري حتى جاء السادات وحرر مصر. وقد حاول ابناء الصحراء قبل ثلاثين عاماً ان يفعلوا نفس الشيء

مع اسرائيل فهزمناهم. فمن الطبيعي ان تتحد مصر واسرائيل ضد عدو مشترك.

«الصحف الاسرائيلية في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٧»

صرح صاحب الجلالة العاهل المغربي الملك الحسن الثاني: اذا التقت العبقرية الاسرائيلية ومصادر الثروة التي في الصحاري فستسعد البشرية.

«وكالات الانباء في نفس اليوم»

قام خبير امريكي بالاحصاء بدراسة النزاع العربي الاسرائيلي فوجد ان اسباب النزاع تعود الى ما يلي:

٧٠ في المائة من النزاع يعود الى احتلال مصر لارض الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨.

٧٠ في المائة بسبب هجوم القوات المصرية على المستوطنات الاسرائيلية التي عمرت الصحراء.

٧٠ في المائة لتآمر مصر مع الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا على اسرائيل وعدوانهم عليها عام ١٩٥٦.

٧٠ في المائة للهجوم العدواني الغادر الذي قامت به القوات المصرية في الخامس من حزيران ١٩٦٧.

٧٠ في المائة لهجوم طائرات الهيلوكبتر المصرية على مشروع المياه القطري لمحطات الكهرباء.

٧٠ في المائة للتصريحات المهينة التي يرددها الاعلام المصري منذ عام ١٩٦٧

١٠٪ لتصريحات غير مسؤولة لنفر قليل من أعضاء الكنيست الشيوعيين.

«معهد الدراسات الامريكي التابع لوزارة الاعلام الامريكية - (بعد الزيارة)»

عندما جلس اعضاء الكنيست في يوم الاثنين مشدودين لاجهزة التلفزيون وشاهدوا المؤتمر الصحفي المشترك للسيدين السادات وبيغن.. اعجبوا بتبادل الابتسامات. واشار احد الاعضاء ان بعض الصحف قد رشحتهما لنيل جائزة نوبل للسلام. وقد علقت السيدة مئير على ذلك بقولها: لست واثقة من حصولهما على جائزة نوبل للسلام ولكنني ارشحهما للحصول على جائزة الاوسكار.

«جريدة معاريف، الاربعاء ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٧»

«التاء»

هذا السادات يا خبيبي قوي.
- انه يضحك بقوة كصوت المدفعية.
- هل شاهدته وهو يضحك مع العجوز.
- انه سكسي.. يا سلام!
- لقد سأل عن شارون وهو على سلم الطائرة.
- العرب يحترمون القوة.
- انه يعرف كيف يتعامل مع الجميع.. حتى مع الكمونستيم. ثعلب.

ـ يا له من شجاع ؛ فقد بصق على كل مؤتمرات القمة العربية وعلى الزعماء العرب وشعوبهم .

ـ العرب . . لن يهمهم . سيسمحون له ذلك . فقد سمحوا بالتي أكبر منها .

ـ لقد تنازل عن اشياء عديدة . ولكن ؛ ما دام يريد السلام فلماذا لم يحمل علماً أبيض أو كوفية عربية بيضاء ـ حينما ترجل عن طائرة البوينغ ـ حتى نصدقه .

ـ أنا لا أصدق العرب .

ـ انه يريد شرم الشيخ .

ـ والقدس .

ـ ولكنه رافق كولك وزار الاقصى . وهذا اعتراف بتوحيد المدينة .

ـ لا تصدقه . فهو لم يدع بيغن لزيارة القاهرة .

ـ نحن بنينا الاهرام ـ هكذا قال له بيغن .

ـ وموسى سبح في النيل ـ هكذا قال زبولون هامر .

ـ ويريدنا ان ننسحب من سيناء .

ـ عقله شرقي . ويعيش في الاحلام . فليقبض كلاماً .

ـ بروخ هبا مار سادات .

«من أحاديث الناس في شارع ديزنكوف في تل ابيب بعد وداع الضيف ونهاية الكرنفال»

ثلاث حكايا
بعد الف ليلة وليلة

٢

في الليلة الثانية بعد الالف قالت شهرزاد

. . وكان عبد الوهاب المحيميد يملك ثلاث نخلات وناقة وعشر نعجات وخيمة وعباءة وبندقية خرطوش وخنجراً ذا غمد مرصع بمعدن لامع وزوجتين، البيضاء والسمراء، وسبعة بنين وثلاث بنات. وكان يصلي كل صباح صلاة طويلة ذات دعاء شجي، مستجدياً ربه ورب العباد والمخلوقات ان ينزل المطر فيحيي الارض ويبل شفاه النعجات والناقة والعجيان. وتنهمر دموعه بغزارة عندما يشح الماء ويتذكر تلك الحادثة اللعينة فيشتم الشيطان الذي سول له فعلها. . فقتل جاره غدراً عند الجب وتزوج زوجته البيضاء. . فيتمتم «اللهم يارب يا غفور. . اغفر لعبدك عبد الوهاب فقد فعل ما فعل نبيك داود».

ويعتقد عبد الوهاب ان الله سبحانه تعالى قد غفر له بعد طول دعاء وبكا. وتجلى غفرانه تعالى عندما وصلت غداة يوم الى جوار النخلات سيارة ذات اربع عجلات لها صوت كهدير البعير عندما يطلب انثاه. . فنفرت منها الناقة والنعجات، والصبية والبنات، وبصت السمراء والبيضاء من ثقب

الخيمة؛ وهرع الرجل حافياً مكشوف الرأس «ويا هلا بضيف الرحمن». . فترجل من السيارة خمسة رجال أعاجم يلبسون ملابس ممسوخة فصافحهم واحداً إثر واحد؛ وابتسم الاعاجم وهم ينظرون الى زميلهم ذي العينين الزرقاوين والنظرات الشيطانية فقال الرجل بعربية بها لكنة الموالي «سنحفر بئراً قرب نخلاتك يا عبد الوهاب. . وعندنا آلات تغور مئات الامتار في عمق الارض. . سوف تتفجر الحياة من باطن الارض. وعندها من يدري ماذا ستصبح؟! الشيخ عبد الوهاب ام الامير عبد الوهاب ام. . . .».

وكاد عبد الوهاب يطير فرحاً. وتذكر وجه زوجته البيضاء الخير الذي استصبح به. ودعاهم الى خيمته فشكروه ووعدوه: ان الايام القادمة كثيرة والآتيات أكثر من الذاهبات. . وسوف يصبحون جيران عمر. . خاصة عندما تتدفق الحياة من البئر.

وبدأ الرجال الاعاجم يعملون. قاسوا الارض. وضعوا علامات. . وفي تلك الاثناء استلقى عبد الوهاب على جلد خروف في خيمته فأخذته سنة من النوم فحلم بماء يتدفق من الارض وعشب اخضر. وغنمات سمان ونخلات خضر تعطي رطباً جنياً. . ورأى نفسه يلبس عباة عجمية وعقال قصب مذهباً وحذاء لامعاً ويمتطي فرساً أصيلاً. . ويا أرض اهتزي ما أحد فوقك الا عبد الوهاب المحيميد.

ومر يوم وتبعه أخوه. . وهكذا. . وفي ضحى يوم من الايام الاولى لذي الحجة. . واذ الرجال الاعاجم يصرخون ويزغردون. . فركض عبد الوهاب المحيميد صوبهم وهو يقول «الله أكبر!» وجري اولاده خلفه كالبهم يرددون «الماء، الماء، الماء» وانخرطوا في حلبة الرقص. رقص الاعاجم رقصاً اعجمياً أما عبد الوهاب فقد استل خنجره من غمده المرصع ورقص رقصة شرقية أصيلة وقد تحلق أولاده حوله وهم يصفقون بحماس «الماء الماء، حياة الصحراء الماء، حياة الانسان الماء، حياة الناقة الماء، حياة النعجة الماء».

وانتبه الرجل ذو العينين الزرقاوين فصرخ «الماء؟؟ أي ماء؟ أيها البدو ألا تعقلون؟ وهل نأتي من وراء المحيطات.. من آخر الدنيا حيث الامطار الغزيرة والانهار العريضة العميقة للبحث عن الماء؟!!».

فصمت عبد الوهاب المحيميد ونسله وكأن على رؤوسهم الطير.. وجف لسان البدوي عندما أحس بالخيبة والخداع.. وفيما هو في صمته ووجومه قال ذو العينين الزرقاوين: أنا وجدنا الهياة يا أبد الوهاب.. هياة الأصر».

وتساءل عبد الوهاب في سره.. الحياة؟ أية حياة يعني؟ وما هذا الأصر الذي يقوله؟ هل يعني «العصر» ام «القصر» أم «الاسر»؟. وفيما هو في تساؤله واضطرابه؟ وحيرته وعذابه؟ قال له ذو العينين الزرقاوين: وجدنا الذهب.

فصرخ البدوي: الذهب.. الاصفر اللماع؟

فأجابه: لا تتسرع.. الذهب الاسود.. اللزج السيال.

وحاول عبد الوهاب أن يفهم.. وهيهات هيهات.. ما الذهب الاسود؟ ما نفعه؟ هل يأكله الصغار؟ وهل تشربه ناقته «الزباء»؟ وهل تتحلى به زوجته البيضاء؟.. آه.. ما أمكر الاعاجم!

وركض الى خميته. وتناول بندقية الخرطوش.. وصوبها نحوهم وقال والشرر من عينيه يتطاير كأنه البرق في ليل امرىء القيس: «انصرفوا أيها الخداعون!!»..

فأخرج ذو العينين الزرقاوين من جيبه مرآة صغيرة ذات غطاء فضي، وعقداً ذهبياً.. ورماه وهو يقول «ايها البدوي تمهل! ستسكن القصر.. وتدخل العصر.. وتلبس الحرير والقصب.. وتسمو الى اعلى الرتب.. وتلعب بالنقود وتصبح العابد والمعبود.. مهلاً يا شيخ عبد الوهاب!».

فتلقف المرآة والعقد كما الكلب يتلقف طعامه من سيده وشعر بتسرعه

فلعن الشيطان الذي زين له الغضب والقتل مرة ثانية . . ثم عاد الى خيمته فأهدى العقد للبيضاء والمرآة للسمراء . . وصارت ايامه خيراً وهناء .

وازداد الاعاجم في الصحراء . . وتكاثرت نقود البدوي الذهبية والفضية . . وأوراق العملة الخضراء . فحشا وسادته . . وحشا فرشته . . وحشا فرشة البيضاء ثم فرشة السمراء . . وبنى قصراً . . وتزوج اعجمية شقراء . . واشترى عبيداً واماء . . وركب سيارة طيارة . . ثم حملوه معهم ذات مرة بالطائرة الى بلاد الاعاجم فتذكر رحلات السندباد . . وطائر الرخ . . وبساط الريح . . ثم عاد الى الصحراء أميراً فاستأجر الجند وحملهم الطبول . .

وصار قصره كعبة للشعراء والمغنين، والراقصات والمتحذلقين، والزبائين واللوطيين والقرادين .

واخذ يسمن . . ويسمن . . ويسمن . . فخاف ذو العينين الزرقاوين على صحته . وكتب على قصره «بسم الله الرحمن الرحيم . الامير عبد الوهاب أمير الاسودين» وصار أولاده أمراء . . أمير للقصر . . وأمير للصيد . . وأمير للشراب : . أمير للذهب الاسود . . وأمير للحجر الاسود .

واشتهر عبد الوهاب المحيميد ـ يا مولاي ـ وطار صيته في العالم فتحدث عنه العرب والعجم، وأهل السند والهند وجزر الواق واق، والسود والبيض، والصفر والحمر .

وغمزه المال فاشترى كل ما تقع عليه عيناه .

وصار يدعى الى كل مدينة . . وتقام لاستقباله المهرجانات والاحتفالات ويلبس الناس ملابس العيد لاستقباله فزار مصر وصلى مع اميرها في الازهر واحتفى به سكان المدن والريف كأنه حفيد الرسول . ثم زار الشام فرقصت ازهار غوطتها وصلى في المسجد الاموي وحملوا له اطراف عباءته . . ثم نزل بغداد فسأل عن هرون الرشيد .

وذات يوم دعا امراء العرب والمسلمين الى قصره فلبوا الدعوة شاكرين

وبايعوه خليفة لخلفاء رسول الله واميراً للمؤمنين. . فعين ذا العينين الزرقاوين مستشاراً وعين صديقه وزيراً.

وداوم عبد الوهاب على صلاته لكنه غير دعاءه فصار يقول كل صباح «اللهم يا رب الارض وما عليها وما فيها. . اشكرك وأحمدك لانك سخرت لي العجم يعملون ويعرقون ويعطونني الذهب الاسود والسيارات والطعام والشراب والسلاح والنساء. اللهم أبقهم مسخرين لخير أمة أخرجت للناس!».

وذات ليلة سأل زوجته البيضاء: ماذا تشتهين؟

فقالت: اشتر لي النيل واجعله عقداً حول عنقي البض.

فقال وهو يداعبها: من وسوس لك بهذا يا حواء؟

فقالت: زوجة مستشارك يا مولاي.

فاشترى النيل. وصار فلاحوه يقدمون له كل عام عروساً.

وفي ليلة أخرى كان في السرير مع جارية شقراء فسألها ما تريد فقالت اشتر لي بردا واجعله حزاماً حول خصري اللين.

فدفع للفلاح والتاجر والاسكافي والحوذي والامام والامير والجندي والزانيات. . وما زالوا يطلبون. فالشوام تجار اذكياء ودهاة.

وفي ليلة قارة قالت له الشقراء مرة اخرى: دجلة يا مولاي.

فقال: وما دجلة؟

- قالت: اشتره لي واجعله قميص نوم.

فدفع ودفع. .

وما زال يدفع. .

وما زال يدفع. .

وما زال يدفع. .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

ص

ولما كانت الليلة الثالثة بعد الالف قالت شهرزاد:

بلغني ايها الملك السعيد، ذو العقل الرّشيد، والرأي السديد، أن شعب مصر اصابته سنة فأهلكت الزرع والثمر والضرع والبشر، فأكل الدود القطن ونفق الجاموس؛ فقام عبد خصي أسود، على التملق قد تعود، ذو مشفر مثقوب، وفكر مقلوب، جمع حوله مجموعة من العضاريط الرعاديد، اتقنوا الاهازيج والاناشيد، يهتفون له صباح مساء «كافور. . كافور. . ».

ولما جاء الشتاء، وخوت معد الفقراء. . وأتخم الاغنياء. . تجمع الجائعون في الساحات والازقة وهتفوا «الخبز يا كافور!» فوعدهم بالخبز والسمن والعسل وخاطبهم من شرفة قصر القبة: يا أولادي، ناموا واحلموا بما تشاؤون. . فالسماء ستمطر لكم أمنياتكم.

ونام الناس سنة من خريفها الى خريفها. ولما أفاقوا بدا الهزال على وجوههم فصرخوا في الساحات والأزقة «كافور. . كافور... الخبز يا. . ». فأطل من شرفة قصره الطاهرة وخاطبهم: «أيها الشعب الصابر. . قال تعالى: وبشر الصابرين. يا أولادي! ناموا واحلموا بما تشاؤون فالسماء سوف تمطر خبزاً وأرزاً ولحماً وسمناً وعسلاً».

ونام الناس سنة أخرى من خريفها الى خريفها.

ولما أفاقوا بدا الهزال على سياقنهم فاستغاثوا «كافور. . كافور. . »

فأطل من شرفة قصره الخريفي وقال محدثاً مستشاره: حسناً. لقد شبعوا؛ لم يذكروا الخبز هذه المرة. ثم خاطبهم: يا أولادي! ناموا سنة أخرى. واحلموا! فالسماء ستمطر لكم مزيداً من الطعام. . وبيوتاً رحبة.

وناموا سنة أخرى من خريفها الى خريفها.

ولما أفاقوا كالموميات، أجساماً بلا حياة: فأشارو الى أفواههم وهمسوا

«النيل . . النيل» فغضب كافور ودخل الى قصره وتوحد ثم فكر . . وفكر وبعدئذ قال لمساعديه : اجمعوا الشعب!

فجمعوا كل الجائعين والحفاة والعراة . وما بقي أحد في الشوارع والبيوت . وأطل كافور من شرفة قصره الشتوي وقال : يا أولادي . . يا بناتي . . أي . . أي . . ا . . . تطلبون الخبز . نعم . أي . . اي . . ا . . من حقكم . تطلبون البيوت . . اي . . اي . . ا . . نعم . من حقكم . تطلبون النيل . . ا . . ا . . اي . . اي . . ا . . نعم . من حقكم .

يا اولادي . . ويا بناتي . . ا . . ا . . . ا . . قد فكرت طويلاً . . طويلاً . . طويلاً . . لوحدي . . اي . . ا . . وقلبي يعتصر الما . . ا . . اي . . وحزناً . ا . . اي . . ودما . . ا . . وحقداً . . ا . . فأولادي جائعون . . الله . اي . . وعراة . . الله . . يفترشون الارض ويلتحفون السماء . . ا . ا . . . عطشى . . اش . . اش . . اش . . ا . ا . . وطال تفكيري . . وأخيراً . . وأخيراً : قررت ان أحل القضية حلاً جذرياً . يعني . . يعني . . جذرياً . . يعني . . من الاعماق . . يعني . . من الاساس . يعني . . لا جوع بعد اليوم . يعني . . لا عطشى بعد اليوم . . يعني . . لا عراة بعد اليوم . . ا . . ا . . اي . . يا خشقدم . . هات خالد بن الوليد!

فأجاب خشقدم : أفندم . أوامر . طلبات .

وذهب مع عسكره . وبعد فترة عاد يسوق الفارس العربي أمامه . فمثل بين يدي كافور .

فقال كافور : أيها البدوي خالد بن الوليد . . يا من سرقت خبز الشعب . يا سارق القمح والذرة . . يا خشقدم علقه على باب زويلة!

فحاول خالد ان يتكلم ليدافع عن نفسه . لكن العبيد كمموا فاه . . وقيدوه وساقوه الى باب زويلة والحفاة والعراة يهتفون «كافور . . كافور!» .

ثم عاد خشقدم اجلالاً وقال بذل: نعم افندم مولاي سلطان كافور. وانصرف وعاد يسوق طارق بن زياد.

فقال كافور: ايها البر بري طارق بن زياد.. يا سارق بيوت الشعب واموالهم. اين كان قلبك لما حرقت سفنهم.. بيوتهم.. متاعهم؟ علقوه على باب زويلة! فحاول طارق ان يتكلم لكن العساكر كموا فاه وقيدوه بالسلاسل واقتادوه الى باب زويلة وهم يهتفون.. «كافور.. كافور!»

ولما عاد خشقدم ومثل بين يدي مولاه اجلالاً وقال بذل: أوامر. طلبات أفندم. مولاي. سلطان كافور.

فقال كافور: هات صلاح الدين.

وعاد يسوق صلاح الدين.

فقال كافور: أيها الكردي صلاح الدين! لماذا سرقت النيل وتركت الناس عطاشاً. علقوه على باب زويلة!

وحاول صلاح الدين أن يتكلم فكمموا فاه وقيدوه بالسلاسل واقتادوه الى باب زويلة وهم يصرخون «كافور.. كافور!».

وبعدئذ وقف كافور على شرفة قصره الربيعي وقال:

يا أولادي.. ويا بناتي. ا.. ا.. ا.. اي.. بعد أن قضينا على أعدائكم.. تستطيعون منذ الآن أن تتآخوا دون حقد أو ضغينة أو حسد. تسلحوا بأخلاق القرية وعاداتها.

فصرخ العضاريط الرعاديد: كافور. كافور.

وردد العوام: كافور. كافور.

وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

ر

ولما كانت الليلة الرابعة بعد الألف قالت شهرزاد:

بلغني ايها الملك السعيد. الحزين على ابن الوليد. ان كافور بعد أن طغى وبغى. وحسب أنه حقق ما ابتغى.. ان الناس اهلكهم الفقر، حتى حسدوا من بالقبر.. فقرأوا كتاب «الجفر».. وانتظروا الفارس القادم.. ليملأوا الارض عدلاً بعد ان امتلأ جوراً. وفيما هم كذلك.. ماد الهرم الأكبر.. وخرج فارس اسمر.. مولاي.. مولاي.. أنظر ما يفعل...

....

....

وصار اسمه
فارس ابو عرب

لو أن غريباً جاء الى قريتنا قبل اليوم وسأل عن فارس سعيد ابو عرب من اول بيت حتى آخر دار في كل حي وزقاق لهز الناس رؤوسهم وقالوا: «مين؟!». فأهل بلدنا لا يعرفونه الا «ابن رتيبة» أو «فارس رتيبة» وكفى. فمنذ نعومة أظافره - كما يقول صانعوا الكلام - اذا كان له نعومة أظافر وأولاد الحارة ينادونه «يا ابن رتيبة!» أو «يا فارس رتيبة!» وأحياناً يعرفون أمه زيادة في العلمية - كما يقول الامام متفاصحاً - فيصبح «فارس الرتيبة». وفي طفولتنا كنا نستعذب مناداته باسم امه فكل غريب وشاذ يثير الاهتمام - تماماً - كما يثير العجب ميلاد عجل برأسين ودجاجة بثلاث ارجل. وما كنا ندري السبب؛ لا اننا كنا نعلم ان ذكر اسم الام عورة. وعيب ذكر اسماء الامهات. وتستطيع ان تسألنا ما تشاء فنجيبك ولو كان من باب «حزر فزر» ولكن اذا استعملت كل شطارتك وساعدك ملائكة ربنا كما ساعدوا المسلمين في معركة بدر فلن يجيبك ولو مغفلاً عن اسم أمه. وأذكر - عندما كنا نتعلم في المدرسة - الابتدائية؛ طبعاً يا محترم! - جاء المعلم النصراوي يرتدي قميصاً أبيض كالجبن ومنشى بنطلوناً مكوياً تذبح العصور في كيته، ويحمل دفتر الحضور والغياب، وجلس على الكرسي وراء الطاولة الهزازة ونادى غضبان النمر. فتقدم اليه الولد بوجل. سأله عن اسم والده فأجاب بصوت عال: نمر يا استاذ. فسأله المعلم

عن اسم أمه. فضحكنا استغراباً وقرصت فخذ جاري وأنا أهمس «من أين يعرفها ابن الكلب؟!». فلم يرد غضبان. فأعاد المعلم النصراوي السؤال فقال غضبان: «شو بدك باسمها؟» والغضب باد على لهجته ووجهه الاسمر. وأصر المعلم أن يعرف اسم ام غضبان. (وأم غضبان كانت يومها شقفة وفي عزها، سمراء وعيناها خضراوان). ورفض غضبان افشاء السر فصفعه المعلم على وجهه فركض غضبان هارباً من غرفة الصف وهو يلعن عورة أم المعلم انتقاماً لكرامة أمه.. وبعد ان دخن المعلم سيكارة امركاني وهدأ قليلاً. طلبني فتقدمت اليه وأنا ارتعد خوفاً كجدي أصابته البردية في كانون فلما سألني عن اسم أمي قلت: «فارس.. اسم امه رتيبة» فضحك الاولاد. ولعن فارس عورة أمي. فغضب المعلم ورمى القلم ونزل عليّ وعلى فارس بالعصا وهو يقول: «أما شعب برمتيفي». ولما شكوناه لمدير المدرسة وسألناه عن معنى «برمتيفي» قال المدير: انها من كلمة «بر» أي «فلاحين». والقسم الباقي دلع اولاد مدن. فحملنا على المعلم النصراوي أكثر. هذا الشاب الذي لا يميز بين «القلب» و«الكلب» في لفظه.. ولا يستحي بل يسأل عن اسماء الامهات.. ومنذ ذلك النهار صرنا نسمي معلمنا فيما بيننا «الاستاذ «برمتيفي».

ولا أدري لماذا غضب فارس عندما ذكرت اسم امه.. فالناس في بلدنا لا يعرفونه الا ابن رتيبة.. مع ان له والداً ذا شاربين عقربيين ويحرث أرضه في أم الحجارة والبص ووعرة الخروبة على بقرة صبحاء وحمار طواشة.

ولا ندري من الذي نسبه لأمه. وهو لا يدري بالضبط.. ويحتمل ان أحد الكبار من الجيران او الاعمام او الاخوال ناداه مرة «بابن رتيبة» فضحك بعضهم.. وغضب الولد واحمرت أذناه فلصق الاسم به «زيجة نصرانية» وما فارقه.

وكانت امه تتظاهر في البداية بالغضب والزعل اذا سألناها عن فارس

رتيبة فتشتم النطفة النجسة التي اخرجت الواحد منا الى النور. . واخيراً استسلمت للاسم وصارت تسألنا عن ابنها «وين فارس رتيبة يا خالتي؟». أما ابوه فقد اعتبرها مساً برجولته فكان يلعن آباءنا واجدادنا ثم صار ينادينا بأسماء امهاتنا ويوصي ابنه ان يفعل ذلك ويفرك له أذنه كي لا ينسى ان يفعل ما يأمره به ولكنه ـ بعدئذ ـ استسلم ايضاً للأمر الواقع ـ كما يقولون ـ وصار اسم فارس سعيد ابو عرب عند فارس رتيبة. ولماذا لا يصير وقد تزوجها عن حب شاع خبره في القرية والناس ما زالوا يعير ونها بهذا الحب. فالحب عيب: عورة. والتي تحب تهين شاربي والدها. وان لم يقتلها فعليه ان يخلع الحطة والعقال ويمشي مكشوف الرأس. ورتيبة ـ كما روت لنا أمهاتنا فيها بعد ـ أحبت سعيد أبو عرب. ومسكوهم عن الندى في دخنوس الصبر. ويا ما قالت لها جارتها «الشلقة» يا «أم الدخانيس» لكن اباها لم يقتلها ولم يقتل ابن ابو عرب. ولم يخلع الحطة والعقال بل زوجها لسعيد وخرجت من داره على الفرس رافعة يدها مثل كل البنات وهو يؤمن ان «الحكاية الرذيلة من الافضل طمها». لكن الناس ما نسوا الحكاية فسموا فارساً باسم امه لشهرتها. وسموا دخنوس الصبر فصار «دخنوس رتيبة».

وفارس ولد على كيفيك ـ لولا امه ـ. في ايام الصيف عندما يجتمع اولاد الحارة على البيادر ونلعب «البطاح» الذي يشبه المصارعة في التلفزيون في هذه الايام. . كان فارس يبطحنا واحداً إثر واحد. . ثم يحرجنا جميعاً. ومع اننا كنا نؤكد في بداية اللعب ان «الشركلة» بالاقدام من الخلف ممنوعة ونحلف على ذلك بشرف آبائنا. . ثم نحاول غدره لنبطحه الا انه ـ رغم ذلك ـ كان ينتصر علينا ويرمينا واحداً بعد واحد على بيدر القش. . والرجال المتفرجون يصفقون له ويصرخون «عاش ابن رتيبة». . «طالع لامه». ثم يتواقح احدهم ويقول «ولك امك رمت سيدك!» فعندئذ يغضب الولد ويحاول ان يرمي خصمه خارج القش حتى يؤلمه انتقاماً لشرف أمه.

وحينما كنا نلعب «الكورة» وننهال بعصينا الغليظة على كرة التنك التي كان اصلها علبة. . و«تقع على أمه» نبدأ بغناء صراخي «يا رتيبة. . يا أمورة. . يا حبيبة». او يصرخ احدنا «رتبت» فيحتد الولد ويضرب الكرة بعصبية ولا تسلم سيقانها الهزيلة كعيدان الذرة من الكرة ومن عصاه السنديانية فيسيل الدم من جراحنا. . ونحن غير آبهين. . بل نستمر بهرجنا وغنائنا.

وكبرنا.

محسويك صار طوبرجي في «سوليل بونيه». وغضبان النمر حجار في محجر «خواجه غولدشميط». وفارس رتيبة طباخ في مطعم الهدار. وطباخ ماهر. أمه رتيبة حرمة معدلة. تساهم في طبيخ الاعراس والباطون وتجيد طبخ الرز المفلفل والكبة وشيخ المحشي.

والمدينة - يا محترم - لعينة. تفسد الشيخ وتطير عقل الشاب. ففي عصر يوم جمعة، عاد فارس رتيبة كعادته كل اسبوع ليقضي يوم السبت مع والديه واصحابه واذا هو «يطرفش كلاماً» على المختار.

قال: المختار زلمة حكومة.

قلنا: مفهوم.

قال: المختار فساد.

قلنا: ان ما كنت ذيب تاكلك الذياب.

قال: المختار رجعي.

فضحكنا من هذا التعبير. وماذا يهمنا سواء كان المختار «رجعياً» أم «بدرياً»؟

لكن؛ الولد اثار في عقولنا حيرة وتساؤلاً. من أين له هذا الكلام. ومن أفسده؟ وكيف يجرؤ ابن رتيبة على انتقاد المختار بصراحة. المختار ابن حمولة وفرده على جنبه. وأقول لك - يا محترم - لولا الخوف من المختار، ولولا ان ام

الـولـد رتيبة التي مسكوها في دخنوس الصبر مع سعيد ابو عرب قبل زواجهما. لولا هذا لجاهـرت باعجـابي بكـلام فارس. فجميل جداً ان يتشابى الانسان على القطوف العالية. ولكن.. يا ولد أبعد عن الوحل احسن ما تلبط.

وفي الاسبـوع التـالي عندما ركبت الباص من محطة «السعادة» شاهدته يجلس قرب البـاب الخلفي وسمعتـه ينـاقش العـمال ويحـرضهم. اي نعم. يحرضهم.. يحدثهم عن التأمـين الـوطني وحقوق العمال. ونقابة عمال البناء. فقـال له غضبـان النمـر عنـدئذ: بلا نقابة.. بلا بطيخ أصفر. غولد شميط حكومة. فضحكنا. وقلنا: شمطه غضبان. لكن ابن «أم الدخانيس» ما اهتز له رمش. بل تحدث عن حق الاضراب. وكاد الباص ينفجر ـ لا سمح الله ـ من الضحـك. اضـراب يا بن رتيبة. ضراب الماعز يصير بعد خراب المقاتي. والمحظـوظ من تضـرب بقـرتـه المنوحة بدري حتى تلد في عز الربيع. وما يئس فارس. وصـار يشـرح عن اضـرابـات عمالية متنوعة وما حققه العمال بسببها. والعرق يسيل على فوديه. فسأله سليم عنتر: المعلم مع الناس والا مع الحكومة؟

فقال فارس رتيبة: مع الحكومة.

فتراقص شاربـا سليم عنـتر وهو يصرخ في وجهه: يضرب امك. بدك تقاتل حكومة.

وغضب فارس لشتمـه أمـه. وحـاول ان يصفع سليم عنتر مع أن فارساً ما زال شاباً امرد وسليم قد ادرك الرجال. ولكننا فسخنا الشر. ونصحنا فارساً ان يعي. ولا تخدعـه الاحـلام واكـاذيب المخـادعـين. وذكـر الاضراب عيب وزعـرنـة. واليـد التي لا تستطيـع عضهـا «بـوسهـا». والـذي لا يعجبه معلم فليبحث عن آخـر. اي هو صاحب الشغـل رابطـك بمرسة ليف؟ ولك جدك قتل الضبع وما قدر يربط أمك.

وتمادى فارس رتيبة. فصار «يطرفش كلاماً» بعد اسبوع على الحكومة.

على الحكومة بحالها. ويقول: «الحكومة مستغلة.. وتمص دم العمال. وحقوق العرب ضائعة. ويجب ان تعيد اللاجئين. وان تعيد الأرض لاصحابها. الدار دار ابونا وجا الغربا يطحونا. فوقف له سليم عنتر «دقر» وقال له: اللاجىء لا يعود الا في الحرب. وعربك عرب جرب ما عرب حرب.

فقال فراس رتيبة بنبرة حماس: سيعودون عاجلاً أم آجلاً. واعجبتنا «عاجلاً أم آجلاً» ما عدا سليم عنتر الذي أجابه: سيعودون بحمار ابوك الطواشة.

وانقسم ركاب الباص الى فريقين. فريق يؤيد فارس رتيبة ويؤيد «عاجلاً أم آجلاً». وفريق أكبر يعارضه ويؤيد «عرب جرب». ولاحظت ان فارس رتيبة يشعر بغبطة. فقد صار له جماعة.

وتذمر حسن نص لسان ولعن الساعة التي يدخل بها فارس رتيبة الباص. فالعامل طول النهار وعرقه يسيل وفارس رتيبة يجادل بالسياسة، والسياسة لها أصحاب. ويتعلمونها في الجامعات وبلاد بره.. وصار الرواح في الباص مثل الغم على القلب.. وهل تسكت يا بن رتيبة والا العن قبر ستتك العوجا!

وما سكت فارس رتيبة.

وعاد بعد اسبوع ومعه اوراق مطبوعة من نوع واحد. يعني منشور. ووزعها على العمال بلاش.. مجاناً. ولما بدأ البعض قراءتها اكتشف انها تهاجم الحكومة وتجرحها فرمى الاوراق ويا دار ما فيك شر. بالعربي. خفنا. وصرخ حسن نص لسان: يا بن رتيبة، مين وزّك؟ بدنا ناكل خبز يا ولد. اذا تريد ان تحارب الحكومة ـ الله معك ـ سافر لسوريا. وان ما سكت رايحين نلين جنابك.

وما سكت الولد.

وبعد مدة جاء مع جريدة عليها خط احمر وسار بين مقاعد الباص

وعرضها على العمال وما جرؤ احد على شرائها. ثم عرضها مجاناً. وهو يقول فيها خبر عن بلدنا «مختار بلدنا زعلان، ع جبنة الكشكوان، بدومن كل لاجيء ليرة ونص.» فاشتراها منه جاهلان. وما ان وصل الباص الى المحطة - يا حبيبي - وما كاد العمال ينزلون منه الى الساحة حتى تناوله سليم عنتر وحسن نص لسان وصرعاه ارضاً واين الجنب الذي يوجعك حتى نهنهوه. وقال البعض: «تسلم يدك يا سليم. يسلم ذراعك يا حسن». وجلس سليم عنتر على صدره ووضع كفيه في خناقه وقال: ها. بعدك بلشفيك. فقال بعضنا: لقد تاب. اتركه يا سليم. فقال حسن نص لسان: لأ. عينه حمرا مثل حروف الجريدة. بعده بلشفيك. لا تلوموه يا ناس. امه بلشفيك.

وتدخل البعض. كفى يا سليم. تمام يا حسن. الولد جاهل وقليل عقل. ولو كان يعقل ما قال «رجعي»؛ ما قال عاجلاً أم آجلاً» وما سب الحكومة.

والحقيقة، ان قلبي كان معه. لولا انني خفت من الحكومة. وخفت على بلدنا من الخراب. فأمه قد خربت شرف ابوها. وان ما خفت من الهاملة خاف من ابنها.

وفعلاً كانت عينه حمرا. فبعد اسبوع عاد يعرض الجريدة على العمال في باص المساء واشتراها صبحي بن حسن الاسكافي. وغضب سليم عنتر وحسن نص لسان الا انهما لم يجرؤا على مناقشة ابن رتيبة. ولد لا مبالي. وقال حسن نص لسان لصبحي: يا صبحي اذا كنت بدك تتعلم كثرة الكلام ما هو لسان ابوك امضى من مقصه يا عمي.

والغريب - يا محترم - ان صبحي صار يبيع الجريدة ويوزع المناشير مع فارس رتيبة.

وقال البعض: أزعر مع أزعر يلتقي. كم يوم ويأخذهما ابو طفرية بيضا الى بيت خالتهما.

وصار لفارس رتيبة جماعة. صبحي بن حسن الاسكافي، وسالم بن راعي العجال. وسميح بن يوسف الناطور.

وجمع المختار «ختيارية البلد» واستدعوا آباءهم وهددوهم. وما تراجع ابن رتيبة وما تراجعت جماعته مع ان «سميح» قد خاف فرزق والده متعلق بالمختار.

وعملها ابن رتيبة. عملها.

في عصر يوم سبت ـ يا محترم ـ بدأ فارس يصرخ في المايكروفون ويدب الصوت «هلموا بجماهيركم الى الاجتماع الشعبي في ساحة العين». وبين كل لفة سيكارة واختها «هلموا بجماهيركم». ولهن البعض امه. وفرح الاطفال لهذا الحدث. وتراكضوا فلا بد ان في الامر فرجة مجانية. وقررنا مقاطعة الاجتماع. وقلنا: اذن طين واذن عجين. وفجأة وصلت سيارة جيب ونزل منها شاب اسمر في شعره بواكير شيب. و«هلموا بجماهيركم». لا أحد. و«هلموا بجماهيركم». وصفق الاطفال. وتقدم الضيف من المايكروفون وقال: يا أهل البلد. اهكذا تكرمون الضيف وتهربون من وجهه. يا فلاحين يا عمال يا طلاب المدارس لماذا لم تحضروا الاجتماع. بلاش. على كيفكم. والله لاخطب لك يا توتة العين. اسمعي يا توتة. . . .

وتكلم الرجل أكثر من ساعة كما يخطب عبد الناصر في الراديو. ولعن ام الحكومة في عزا ابوها. وشرشح المختار وسماه «عميل».

وكنا نسمعه من بعيد. وقال احدنا: كلامه كلام رجال. وذهب الى ساحة العين. نقدت. ثم تبعناه واحداً بعد واحد. . فاكتظت الساحة بالناس. وصار الخطيب يصول ويجول ويجود. وصفقنا له بحماس. الكلمة الحلوة تطلع الحية من وكرها.

وكادت الحكومة ان تفقع ـ كما قال المختار ـ لولا انه عيب ان تفقع من

ابن رتيبة. ولكنها بكبرها وضعت نفسها قباله. اعتقلته واطلقته ثم اعتقلته واطلقته.. ثم.. ثم..

وصار الولد شراً لا بد منه في القرية. وكما يعتاد الناس على البرد والرشح في الشتاء وعلى الحر في الصيف وعلى رياح الخماسين في تشارين اعتادت بلدنا على ابن رتيبة وجماعته. قال الامام: انهم كفاروهم الذين عناهم القرآن بقوله تعالى «غير المغضوب عليهم ولا الضالين». هؤلاء هم المغضوب عليهم. هؤلاء هم الضالون.

وقال المختار: بلشفيك. بلشفيك.

وقال الشاويش شارون: حمر.

وبقينا نتجنب الجماعة. ولا نحادثها الا بالسر، يا عمي نحن وراءنا عيال. لا شيء يذل المرء الا العيال. ولكن الحكومة ما عندها حكمة. زادتها. زلبطتنا. ونحن لسنا افاعي ناكل التراب. ارضو الوعر احراش. لا سامحكم الله. ارض الوقف لابوطربوس*. والمدرسة للمندوب السامي. وأرض البص للمنهال**. وما بقي سوى ارض ام الحجارة. وام الحجارة ارض خصبة. تصير البطيخة فيها وزنة. والقمح تكمن به الجمال. وسال لعاب الحكومة عليها. ولعبت عين ابوطربوس ورفت عليها. وأرسل اوراقاً صفراء ينزع بها ملكيتنا عنها. شيء يطير العقل والدين. فلما مات أحد في قريتنا وأوصى لخواجة ابوطربوس أو خواجة منهال. وحكومة سياستها مثل قرن الخروب اعوج وأسود. لا ترحمك ولا تدع رحمة ربك تنزل عليك.

وفي أحد الايام: علم فارس ابن رتيبة ان خواجة ابوطربوس ورجاله وخواجة منهال ورجاله سوف يصلون الى الارض ليفلحوها. فجمع جماعته أولاً، ثم جمعوا أكثر من عشرين شاباً واستعدوا. كمنوا في وعرة الخروبة شمالي

---

* القيم على أموال الغائبين.

** إدارة اراضي اسرائيل.

ام الحجـارة. . ومـا ان وصـل رجـال «منهـال» مع معـداتهم ومقاييسهم حتى اعطى الـولـد الامـر فانهـالوا عليهم بالعصي والحجارة. والخواجة ـ يا محترم ـ يخاف من العصي والحجارة أكثر مما تخاف جارتنا المدنية ـ حرمة يوسف العلي ـ من الفـار. واكلوهـا سخنـة. وفجأة اطلت سيـارة شرطـة ونـزلوا منها يلبسون طاسات الحرب ويحملون الترس. . وما صمدوا الا نصف ساعة. . بالروح والـدم نفـديـك يا أم الحجـارة. فتركـوا السيـارة وهـربـوا. ثم وصلت خمس سيارات، ثم ثلاث سيارات، ثم سيارة جنود يلبسون القبعات الخضراء. وكانت معـركة ام الحجارة. الاولاد صمدوا. صمدوا. . وفارس قاوم وقاوم. ولما حاولوا القاء القبض على الشاب والجرحى رأى فارس ان الانسحاب افضل ليحافظ على سلامـة جماعتـه وعلى ما حققـه من نصـر معنـوي ومـادي فأمـر رجـالـه بالانسحاب ووقف يصارع العسكر والمنهال والابو طروبوس وحده.

ووصـل الخـبر الى القـريـة. فارس جريـح وقـد أسـروه ورموه في سيارة الشرطة الزرقاء.

وزغردت رتيبة.

وبالروح والدم نفديك يا فارس بوعرب.

وبالروح والدم نفديك يا فارس بوعرب.

ويا ام الشهيد زغردي كل الشباب اولادك.

و«فـزعت» كل البلد. الشبـاب والشيوخ والنساء والاطفال وسليم عنتر وحسن نص لســـان. . وحملوا العصي والحجـارة وأقـامـوا المتـاريس في طريق السيارات وأصروا على اطلاق سراح فارس.

ولعلع الـرصـاص. وسمـع اهـل القـرى المجـاورة. ووصلت طلائـع رجـالهم. وعـاد القتـال من جديـد. ووصلت الى ام الحجـارة ثلاث دبـابات وجرحت عائشة وانكسر ساق حنا.

وعاد الرجال والنساء في زفة وهم يحملون فارس على اكتافهم. وفارس يهتف: بالروح والدم.

والناس يرددون: نفديك يا أم الحجارة.

- بالروح والدم،

- نفديك يا فارس.

ومنذ ذلك اليوم صار اسمه فارس سعيد ابو عرب.

١٨ حزيران ١٩٧٨

وردة لعينى حفيظة



إلى أطفال الشعب الفلسطينى فى مخيمات اللاجئين.

أبناء شعبى الذين كتبوا ملحمة الصمود!



فارس هذا العصر

الدرب طويل وموحش. والأعداء يزرعون الشوك وحقلي يتشهى جرعة ماء بعد أن تشقق من طول الظمأ وبرحائه.

خسرت النبع الصافي منذ أن اغتصبوه قبل نيف وثلاثة عقود وما زلت أشرب السراب فاستوطن الجفاف شفتي فبدتا كضرع العنزة في تشارين. وتزعم أمي ان ابتسامة حلوة كانت تتلألأ على هاتين الشفتين في يوم ما. فأبكي. لا على الابتسامة بل على "العروسة" التي كانت تعملها لي من خبز الطابون المدهون بزيت الطفاح فأعدو حافيا والزيت يسيل على ذقني ويلطخ ملابسي.

من اغتصب العروسة؟

الدرب مزروع بالقتاد. والخيول المتعبة نفقت والراية في الأفق الدامي. قرأت لي جدتي كفي وقالت: أمامك يا ضناي ثلاثة طرق، طريق السهل، ترابه ناعم ويخلو من الحصى ومليئ بآبار الماء. وعند كل بئر شجرة غناء تحتها مضافة فيها خبز ساخن وطبيخ دافئ، وقطين وزبيب وتمر. ولكنك يا ولدي لا تخطو خطوة في هذا الطريق إلا بعد أن تدفع أختك لحارسه ثمناً، وترقص في ليلة فض بكارتها.

والطريق الثانى تقطعه ثلاثة أنهار عريضة وعميقة. عليها ثلاثة جسور ويجلس على كل جسر عملاق يحمل خنجرا وسيفا وسناناً ولا يدعك تعبر الجسر - ولو تزودت بجواز سفر - الا اذا صليت له وحمدته وشكرته وقبلت يديه وقدميه وأعطيته شعرة من شاربك.

والطريق الثالث تحرسه غولية تدلى ثدياها واحمرت عيناها وشمط شعرها، تطحن الملح برحى غريب فاذا شاهدتك فلا سلام ولا كلام بل طحن عظام.

فحذار حذار يا ضناى.

"وقلبى يتهشى لحظة فرح ليفطر بعد صوم طويل فيخفق وتندفع الابتسامة فتعلو شفتى وتمحو الجفاف."

والراية في الأفق الدامى. وللأفق ثلاثة دروب. ولا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم.

ولا كان الدرب الأول درباً.

الأعداء ثلاثة. والأنهار ثلاثة. والجسور ثلاثة. وما صليت لأحد وما قبلت الا يد والدتى ولى شاربان وكل شعرة فيهما بروحى ولن أفرط بها حتى لو كان حرقها يحضر الخادم كشعرات الشاطر حسن.

وما بقى أمامى الا الدرب الوحيد الذى وصفوه فقالوا "بودى ما بجيب"!

تزود أيها الفلسطينى فالدرب محفوف بالمخاطر، والأعداء الثلاثة سمموا آبار الماء وجففوا النبع بعد أن سلبوه واغتصبوا العروسة وهدموا الطابون وأحرقوا واجتثوا أشجار الزيتون، والدرب طويل وموحش. فتزود أيها الفتى..تزود...

❋ ❋ ❋

جاء الجنود.

وبرز على جدران البيوت المرشوفة بالشيد الأبيض الناصع صورة شيخ قتيل وبجواره عكازة. وصورة طفلة خرجت عيناها من محجريهما تبصقان على تمثال الحرية. وصورة إمرأة حامل مبقورة البطن تصرخ: وامعتصماه!!

يا دير ياسين! أيتها القرية الفلسطينية الذبيح! كيف صرت قرينة لكل قرية وبلدة من رفح حتى الجاعونة والخالصة.

وحمل والدى أختى "حياة". وحملت أمى طعاماً وماء ولحافاً.

وعدت وراءهما.

هى سبعة أيام أو سبعة أسابيع، أو سبعة أشهر أو سبع سنين....

لا تكمل لا يا غراب البين حتى تصير سبعة عقود! وأرض تأخذنا، وأرض تحملنا، وأرض تحطنا، وأرض تودعنا وأرض تستقبلنا على مضض.

والقى والدى عصا الترحال فى ظل شجرة خروب بعد أن جف ثديا أمى وتلعلع لسان أختى وتجرحت قدماى.

هى سبعة أيام يا زينب فاصبرى!

هى سبع ليال يا حسن كرٌ وبلاء!

ومضت وانقضت.

وجعنا.

الفصل صيف. والشهر آب. والعام عام طرد آدم من فردوسه وعرانيس الذرة البيضاء نضجت فى سهل البطوف وتنتظر الحاصدين بشوق إمرأة خرج زوجها

من السجن وفرغ صبرها من تلكؤ المهنئين. والبطوف مرمى مدفعيتين. الهاغنا من هنا وجيش الانقاذ من هناك. والذرة البيضاء تحترق. ونحن جائعون.

وتركنا أبى مع الغسق وعاد مع السحر يحمل على ظهره كيساً مملوء بعرانيس الذرة.

وفى الليلة الثالثة أقسم بالله العظيم وكسر الهاء وعقد الميم ألا يعود فالرصاص سقط بين قدميه.

وحمل والداى عرانيس الذرة إلى صخرة مستوية فى قاع الوادى وضرباها بعصويهما وفصلا الحب عن التبن ثم وضعا الذرة فى شوال حملته أمى على رأسها وصعدا إلى البيت الجديد، ظل الخَروبة.

وعلى السفح، ترنحت. قاومت. اهتزت، وقعت أرضاً.

وتبعثرت الذرة فى أرض يغشاها الشوك والحصى.عبث. عبث.

ونظر والدى إلى السماء وقال بغضب. البلدة راحت. البيت انهدم. الرزق "ويا ديّات سخون سخون" فماذا تريد؟ كل كبرك وعظمتك وتلاحقنى على كيس ذرة جنيته من بين فكى الذئب؟!!

ومن يومئذ ما صلى والدى ركعة. ويزعم بعض الناس - اليوم - انه مات كافرا والبعض الآخر يقسم الايمان الغليظة أنه فى جنة الرضوان. وأنا أقول: لا هذه ولا تلك. فقد مرت سبعة أيام، وانقضت سبعة أسابيع. وانتهت سبعة شهور، واحتضرت سبع سنين وما تحرك حجر. فقال والدى: بخاطركم!! فصرخت أمى: واحسيناه!!

❋ ❋ ❋

وعندما أدخلونى إلى الصف الأول الابتدائى لفتُّ نظر معلمى بنجاحى فقد كتبت الأحرف والأرقام بسهولة وتهجأت وقرأت بسرعة!

وحفظت دروسى "كرجة مى"! ولما زار الحاكم العسكرى مدرستنا طلب منى أن أقف وأنشد أمامه. فوقفت وانشدت كالببغاء النشيد الوحيد الذى لقننا اياه.."هتكفاه" فصفق لى معلمى والطلاب والحاكم العسكرى ونياشينه وأبدى الحاكم العسكرى اعجابه بأنشادى.

وأذكر اننا اشترينا عنزاً لتبيض وجه المائدة بحايبها ولبنها وقد قدتها يوما لترعى العشب الأخضر قرب الشارع المعبد وجلست ارعاها. ولما ضجرت بدأت أغنى قلت: اوف وقلت يا ليل يا عين. وغنيت "هتكفاه" وفوجئت بصوت يقول "عربى نحماد" فالتفت مذعوراً فاذا بخواجة يلبس قبعة سوداء صغيرة وينظر لى مبتسماً.

وتعجبت. فالذى أعجب الحاكم أعجب الخواجة. وما عرفت معنى ما أنشدت وما غنيت الا بعد ذلك بسنوات حين غضب الحاكم العسكرى وأرغى وازبد لأن "اختيارية البلد لم يقفوا اجلالاً لهذا النشيد فى حفلة عيد الاستقلال التى أقامها ودعا اليها وجهاء البلدة، فلما قالوا له: روق يا حاكم فالوقوف لله وحده، لعن نبيهم وإلههم، فعادوا إلى بيوتهم يا تعسهم!

ونعود إلى الحاكم. والحاكم العسكرى رجل أشقر يلفظ العين همزة والحاء خاء أو هاء ويلثغ بالراء. فبعد أن أنشدت وصفق وانتشى قال: يا شاطغين، اليوم ايد استكلال وهادا.

هلاوة منشان انتو.

ووزع المعلم حبات الملبس.

وتذكرت الدار والحاكورة والحارة والأتراب ونبع الماء والعروسة التى اغتصبوها والأيام السبعة والأسابيع السبعة والشهور السبعة.

وخرجنا من الصف، وعلى حافة حقل الأشواك القريب وقفت. لوحت بيدى قوياً وقذفت ملبسات الحاكم العسكرى.

نظر اترابى إلى مشدوهين وأدركوا معنى الحلوى فقذفوها أيضاً.

وكرهت معلمى الذى علق فوق اللوح ملصقا مكتوباً عليه بالخط الكوفى: وأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر ...

يا جبان.!

❊ ❊ ❊

تعلمت.

وعملت بياع فلافل.

قالت لى سائحة وأنا أناولها رغيف الفلافل: تبسم فأجبتها: رائحة الزيت المقلى تقلى الابتسامة.

وغسلت الصحون فى المطاعم.

وقال لى معلمى: تبسم للصحن وأنت تغسله يبتسم لنا الرزق فقلت له فى سرى: لا عرفت البسمة! كيف أبتسم وأنا واقف ست عشرة ساعة وراء المجلى؟!.

وعبدت الشوارع بالقار.

ومرَّ سائق سيارة أمريكية عريضة القفا فقال لى: زفت يا دين الزفت! فتمنيت الزفت له ولشوارع بلدتنا.

وبنيت الدور للقادمين الجدد.

وخافت الوزارة على مصير العمل العبرى فأمرت متعهد البناء بأن يفصلنى من العمل فأطاع مكرها.

أنا حى. ولى بيت فيه سرير ومائدة و....و....ولاينقصنى......

هل يسمعنى أحد؟

لا ينقصنى إلا....

بلادى بلادى لك حبى وفؤادى.

❋ ❋ ❋

الراية فى الأفق الدامى. والدرب مزروع بالقتاد. تزود أيها اللاجئ فالدروب ملغومة ولا يلقى الشجاع إلا الشجاع.

وسرت. طريق يأخذنى. مفرق يريحنى. وهنا أنام وهنا أقوم. وهنا أسير. وهنا أرتاح. وليل يتبع النهار. ونهار يتلو الليل. الأفق. قريب خبط العصا مرمى حجر شربة سيكارة. وأنا أغذ الخطى والأفق يبتعد. والماء على مرمى النظر. والجلد. والجلد. والجلد والماء يتبخر والسراب يبتسم لى والأمل يرقص فوق الرمال. وأمشى. وأمشى. وأمشى. ووصلت إلى سلسلة جبال تناطح السحاب بمناكبها وتتعمم بالغيوم.

وبحثت عن الدرب فوجدت بعد لأى ممراً يتسع لشخص واحد والجبال منحدرة مقفرة فى الميمنة كأنها صلعة رجل تتزحلق النملة عليها. واما فى

الميسرة فقد نهدت على منحدرات الجبال نتوءات كأنها سكاكين أو خناجر أو أنياب.

يا باب الله!

وسرت.

الشمس فى السماء شمامة حان قطافها. والهدف المنشود فى نهاية الممر.

وشاهدتها، غولية الدهور، تجلس على صاج حديدى، وتزين الثعابين جيدها، وتطاير شعرها الأمشط، واحمرت عيناها، وتدلى ثدياها. وكانت تطحن الملح برحى لها أسنان الأفاعى.

- السلام عليك يا غولية الدهور.

رفعت رأسها فإنعكس نظرها على سفح الجبل فلمع برق فقالت: لولا سلامك، سبق كلامك، لفصفصت لحمك من عظامك.

ارتعد ساقاى

وقالت: اتريد مالا؟

قلت: لا. المال ليس غايتى.

- ذهبا؟

- لا الاقراط ولا الأساور مطلبى.

- ماساً؟

- لا العقود، ولا الخواتم هدفى.

- نفطاً؟

- لا الملك ولا الأمارة ولا المشيخة.

- خمراً؟

- لا سلافة ولا راح.

- نساء؟

- لا بدر التمام ولا حورية من عدن.

فغضبت وابرقت عيناها وقبضت على حفنة رمل ورشتنى بها وهى تقول: وماذا تريد اذاً؟

فقلت: قطعة قماش، طولها باع، وعرضها زراع، بها بياض الثلج وسواد الليل وخضرة العشب وحمرة الورد الجورى.

- وماذا أيضاً؟

- قرطاساً مكتوباً عليه بضعة أسطر منظومة، فإذا خفقت قطعة القماش رقص وغنى القرطاس.

نظرت غولية الدهور إلىّ وقالت: تزود أيها الفلسطينى فالدرب طويل وموحش وملئ بالغيلان. ولولا سلامك، سبق كلامك، لنصفصت لحمك عن عظامك.

ونفخت فى الملح فهبت عاصفة. وحملتنى. وحملتنى. وحطتنى. ولما افقت فركت عينىّ فاذا أنا فى ظل الخرّوبة !!

أما قلنا لك: تزود!!

❋ ❋ ❋

سجل يا قرن العشرين.

ع معارك فلسطين.

عاللى جرى واللى صار

بين العسكر والثوار.

دير ياسين، أعرفها.

كفر قاسم، ما نسيتها. ايلول، وظلم ذوى القربى أشد مضاضة.

تل الزعتر، وايعرباه!

صبرا، واعدناناه!

شاتيلا، واقحطناه!

وتكسرت النصال على النصال.

تزود أيها الفلسطينى فالدرب طويل وشائك. الرمال حارة. والتربة ملة. والصخور ناتئة حادة. والرياح تسفو الغبار. والأشواك مسننة. والأفاعى تتربص. والذئاب تساقط شعرها ونهدت أضلاعها وعلا عواؤها. والدرب مرصود. والأعداء ثلاثة والأنهار ثلاثة والجسور ثلاثة. بعد أن تعبر باب الوادى تجد النهر الأول وعلى الجسر غول فاذا عبرت وكان النجاح حليفك، يعترض طريقك بعد مسيرة نصف نهار نهر وعلى الجسر مارد كلما نظرت إلى رأسه استطال حتى ينطح السماء. وإذا نظرت إلى قدميه امتدت أصابعه وامتدت حتى تتغرز فى الأفق. فاذا نجوت منه وسرت نصف نهار آخر تلقاك النهر الثالث والجسر الثالث تحرسه جنية ترقص أحلى من نجوى فؤاد وتغنى أرق من فيروز وتعزف أحسن وأشجى من رعاة الجبال فلا تطرب لموسيقاها ولا

تترنم لصوتها ولا يزغ نظرك إلى ردفيها أو صدرها وهى تهز بطنها وإلا سلخت جلدك ومضغت لحمك وكسرت عظمك. وهذه ثلاث شعرات من شعر ابطى اذا تضايقت فاحرق احداهما تجدنى أمامك. شبيك لبيك عبدك وبين يديك!

ودرب يحملنى.. ودرب يحطنى.

طريق ياخذنى.. وطريق يجينى.

وأرتاح وأنام. وأنهض وأسير وأعدو فأرتاح وأنام وأنهض وأسير وأجوع. وأعطش. وأقلق وأسهر. وأمرض وأشقى. وأسير وأرتاح. وأبكى. وأضحك وأنادى. وأصرخ. وأهمس.

هذا باب الواد. هذا النهر. وهذا الجسر. وهذا الغول. فاسمع يا هذا. أنا ابن سيد الشهداء، وأمى زينب وتعمدت بالمأساة فافتح درب الحية! والا فأنا متقلد سيف خالد.!!

والتقى البطلان، كأنهما الجبلان، وتصارعا طويلا، وأسمعت الوديات عويلا، ودارت الحرب سجالا، وتصاعدت قعقعة السلاح. فاذا الفرج لاح، والغم انزاح، وأصابنى الفرح فالذهول، واختفى الغول. وأنا صاحب الجسر. فقطعته بثبات، حاسباً حساب ما هو آت.

وطريق يحملنى، وطريق يأخذنى، ودرب طويل، لا تسير به الأراجيل، مزروع بالشوك والمسامير، وملى بعظام الأفاعى وأنياب الذئاب وجماجم الفرسان وحوافر الخيول وأسمال الرجال.

وأسير.

والراية فى الأفق الدامى.

الراية رباعية الألوان.

يا رب.

يا رب السماوات والأرض والخبز.

يا رب السلام والحروب.

يا رب الورد والقتال.

يا من يتوكل عليك القاتل ويعوذ بك القتيل.

يارب الجنرالات والطفل الرافع يديه استسلاما.

أنا لا أريد أموال فورد وروتشيلد.

ولا أسطول أوناسيس.

ولا نفط - دولار -

ولا خمور باريس.

أنا أسعى لاحمل علماً وأغنى نشيداً. فهل هذا كثير يا رب؟.

هل هذا كثير على عبدك جبل بن ساحل بن نقب بن عامر بن كرمل بن جليل الغورى الصدفى الطبرانى النصراوى العكى الحيفاوى اليافاوى المقدسى النابلسى الخليلى السبعى العسقلان الأسدودى الغزى.

قطعة قماش طولها باع وعرضها ذراع؟ وقرطاس به أبيات ونوتة؟

هل كثير يا رب؟!.

فى هفانا شاهدتهم يرقصون/ يطيرون فرحاً/ تضحك كل أعضائهم/ يقولون: نحن هنا، نحن أبناؤك يا أنغولا/ ويلوحون بعلمهم وينشدون نشيدهم.

وشاهدتهم حفاة/ أنصاف عراة/ يهزون السيوف والعصى/ يرقصون/ يقفزون/ يلعبون/ يلهون/ يقولون: نحن أبناء موزمبيق/ ويلوحون بعلمهم وينشدون نشيدهم.

وشاهدتهم اسطورة القرن العشرين/ وجوههم صفراء/ أجسامهم صغيرة/ قدقهروا الطائرات والصواريخ والمدافع والدبابات/ وخناجرهم تزغرد/ نحن أبطال الفيتنام/ نحن محررو سايغون وقاهرو الأنكل سام/ ويلوحون بعملهم وينشدون نشيدهم.

وشاهدتهم فى أثيوبيا والجزائر وعدن، أقارب وأولاد عم!! هل كثير يارب؟

أنا لست أقل منهم. قدمت العرق والدمع والدم واللحم والعظم والروح منذ أشرقت شمس هذا القرن. وما زلت أقدم. فأنا معطاء سخى وحاتمى.

ودرب يحملنى ودرب يأخذنى. هذا هو النهر. وهذا هو الجسر. والمارد يقف على رأس الجسر. وجسمه يطول ويطول ويتسارع طولا. والخوف ينتابنى، وأصابعه تمتد وتمتد وتغرس فى التراب، وساقاى تهتزان، والبحر وراءكم. والعدو أمامكم، وأتقدم.

وفجأة، تحرك المارد الصلصيل، ورمانى بصخرة بحجم الفيل، فاشتد القتال، وعظمت الأهوال. وبقينا على تلك الحال، إلى أن اعترانا التعب، واسترخت منا المفاصل والركب، فأيقن كلانا بالهلاك والعطب. ففكرت بالشعرات هل أحرقها أم الشجاعة أطلقها؟

ولمحت الراية فى الأفق الدامى، فثبَّت أقدامى، وضربته ضربة فراحت خائبة، بعد ما كانت صائبة، وهجمت هجوم القضاء المنزل فارتد راجعاً إلى الوراء فقلت خذها من يد فارس الفرسان فتلقاها بترسه فثنيتها فقطعته نصفين.

٥

وعبرت النهر الثانى من على الجسر الثانى.

سجل يا قرن العشرين.

ع معارك فلسطين.

ع اللى جرى واللى ضار.

بين العسكر والثوار.

وتابعت السير ومعالم الدرب واضحة، غزة/ موقع متقدم فى الجبهة. الدهيشة/ خليج الخنازير. بلاطة/ سايغون. الوحدات. عمان. تل الزعتر. عين الحلوة. الرشيدية. قلعة الشقيف. الفكهانى.

بيرو....و.....و......وت.

أنا الطير الأخضر أنا مزين المحضر.

أنا فارس هذا العصر. الفلسطينى اسمه ثائر/صامد/ عائد/ شهيد/ حى.

افتحوا الدرب!

افتحوا البوابات.على مصاريعها

انثروا الورد!

رشوا الملح!

أنا قادم. أنا فارس العصر قادم.

فماذا تقول الجنية؟

*****

بلادي...بلادي.

بلادي... بلادي.

....

ملاحظة:

هتكفا: النشيد الرسمى الاسرائيلى

عربى نحماد: عربى لطيف

كانون الثانى ١٩٨٣.



صبـــي وبنت مـــن الدهيشـــة



إلى تلاميذ المدارس فى مخيم الدهيشة. مع حبى.

جلستُ على خشبة من جذع زيتونة رومية وبدأت أجلى الصحون والفناجين والملاعق بعد أن تناول أهلى طعام الفطور. هذه الجلسة فى صحن الدار جزء من حياتى. نظرت إلى الشمس المشرقة التى تداعب اشعتها التشرينية الدافئة جسمي وابتسمت. وعادت يداي الطريتان تداعبان صحناً. دندنت بلحن لمارسيل خليفة. تحسست بيدى المبتلة بالماء فرخى الحمام فى صدرى ونظرت إلى الشمس المشرقة مرة أخرى. لقد قال لى حينما ناولته الزجاجة: سأسقط الشمس وأضعها في مزهريتك!! كل شئ طائع لهذا الولد. وأطوع الأشياء له لسانه الذى يختار التعابير الشعرية الرائعة فينقذنى من عالمى القاسى ويغرس فى قلبى حب الحياة. هل يعرف ان المزهرية الوحيدة فى دارنا بسيطة جداً فقد صنعتها بيدى فى دروس الأشغال المدرسية ولا تعرف الا الأزهار البرية مثل النرجس وعصا الراعى وشقائق النعمان والطيور؟! الناس فى المخيمات لا يشترون الأزهار ولا يتهادونها فى أعياد ميلادهم أو أعياد زواجهم. لعل والديّ نسيا يوم زواجهما. وأنا لا أحتفل بعيد ميلادى فهذا ترف لا يحتفل به ولد أو بنت فى المخيم.

متى يكون عندنا دار؟ دار مثل الآخرين مثل الدور التى أشاهدها فى المدينة. ومثل الدور التى قرأت عنها فى الكتب. لماذا لا يكون لى غرفة خاصة بها سرير ووسادة وشباك له ستارة أزيحها فى المساء وأناجى القمر الفضى؟ لماذا لا يكون لنا دار فيها مطبخ وحنفية ماء ساخن ومجلى رخامى.. أنظف الصحون والفناجين وأرتبها عليه!!؟

قال لى: سأقطف الشمس وأضعها فى مزهريك!

*****

سألنى ماذا يعمل أبوك؟

- يبنى لهم البيوت والملاجئ.

- فى كفار سابا أم فى تل أبيب؟

- وفى كريات أربع، أيضاً.

نظر إلى. شعرت بخجل يداهمنى.. لماذا تبنى لهم يا أبى البيوت؟ لقد هدموا بيت صديقتى نجوى. وبيت حسن الفران. لكنه أنقذنى عندما قال:

أبى يزرع لهم الخضار ويتعهدها. ويجنى الثمار لهم أيضاً.

*****

بعد الدروس لعبنا معا. صبيان وبنات. لعبنا ألعاباً متنوعة مفرحة مضحكة مسلية.

هذا الولد يعرف ماذا يفعل. يعرف كيف يقودنا. ويعرف كيف يكسب ثقتنا وحبنا.

قال: تعالوا نلعب "عسكر ووطنية"!

اللعبة جديدة، لا نعرفها، ولم نسمع بها. ولم يعترض أحد منا.

قسمنا قسمين. فريق العسكر وفريق الوطنية. تزعم فريق الوطنية وقدت فريق العسكر.

صحت بأعلى صوتى برطانة: ولا احد فى شارع! وزأرت كالسيارة العسكرية. اسفة. أخرجت فحيحاً كسيارة ذات نجمة سداسية.

سرت ولحق بى فريقى. صرنا نغنى. ونطلق رصاصاً وهمياً وبعدئذ هتفت:

يروشلايم!؟

- شلانو.

- بيت ليخم؟!

- شلانو.

- حفرون؟!

- شلانو.

- يريحو؟!

- شلانو.

- لعربيم.؟

- همدبار.

وسقطت الحجارة علينا كزخ المطر. تفرقنا بسرعة اختبأت وراء سور الدار القريبة. شاهدت زميلنا سامي يحتمي بجدار أحد البيوت. صحت أداعبه. موشيه إوع! الحجر أعمى.

أجابني: أنا مش بخاف!!

بدأ سامي الدلوعة يتقن اللعبة. وفجأة صرخ سامي متألماً "رأسي...رأسي!!"

ايقنت أنه أصيب. هرعت اليه. كان الدم يرسم خطوطاً حمراء معوجة على وجهه. ولما شاهدني قال: احنا قلنا نلعب لعبة، وثابت حولها جد.

******

كلما التقى بسامي أحييه بالجملة التالية: احنا قلنا نلعب لعبة، وثابت حولها جد؟!

ينظر إلي بعتاب، فأضحك وأقول له: خَرْحَك يا عسكر الاحتلال.

فيغضب ويهجم ليصفعني، فأعدو. ويعدو ورائي..

*****

سألته: متى؟

أجاب: حين يقتل الشاطر حسن الغولية.

حين عدت إلى البيت تذكرت شعره وعينيه وأنفه وأنا أرسم صورة الشاطر حسن وهو يطعن الغولية في صدرها!!

ورسمت في طرف الورقة شمساً مشرقة، وداراً و... و... لن أقول لكم.

إحزروا !!

* * * *

- لو وضعوا رجليك بالفلق؟

- لن أعترف.

- لو غطسوك بالماء البارد؟ - لن أعترف.

- لو كووك بالكهرباء؟

- لن أعترف.

- لو قلعوا رموشك رمشاً رمشاً؟آخ. لن أعترف.

- لو قلعوا أظافرك.

- آي..آي.. لن أعترف.

- لو أدخلوا عصا في شرجك- أبداً أبداً لن أعترف.

- لو استعملوا كل وسائل السافاك؟

- لن أعترف.

وماذا أيضاً؟ نسيت. ماذا بقي؟

ابتسم وقال لي: والسي. آي. ايه؟

قلت: والسي. آي. ايه؟

قال بعزم: لن أعترف.

نظرت إلى الزغب فى ذقنه. تخيلته ملتحياً مثل تشى جيفارا. تمنيت لو أقبله. رقص قلبى!!

ثابت رجل.

ثابت لن يعترف.

وهذه اللعبة لا أحبها فهى حزينه وموحشة.

*****

وقال بحزم:

تتولى عبلة المنطقة "رقم أ" من المسجد حتى بياع الفلافل. وتتولى سميحة منطقة السوق. ويهتم سامى بشارع الصياغ، يجب أن تمر الأمور بسرعة. علينا أن نتفادى النقاش. نلتقى فى العاشرة فى ساحة الحارة الفوقا. احضر طابتك يا سامى.!

وانطلقنا.

شعرت اننى كبرت فجأة. أنا سميحة بنت عادل فدائية مناضلة تقاتل جيش الاحتلال بضباطه وجنوده ودباباته وطائراته وصواريخه لتصنع الفجر. ولو لا التعليمات والانضباط لقفزت فى الشارع وصرخت ليسقط الاحتلال ! وتخيلت العلم ذا الألوان الأربعة يرتفع عاليا على بناية البريد.. وكدت اسمع طلاب صفى ينشدون فى الصباح فى ساحة المدرسة «بلادى... بلادى..».

دخلت الحانوت الأول. كان فيه ثلاثة زبائن. الرجل فى عمر والدى. والدى يبنى لهم البيوت والملاجئ لنأكل خبزاً. وجه التاجر أبيض محمر. شعرات بيضاء تزين فوديه. ملابسه أنيقة. حذاؤه لامع كشعر رأسه. خرج الزبون الأول. ملابس صوفية وحريرية. رجالية ونسائية، توكلت على الله. الدين ممنوع والعتب مرفوع. شعارنا الأمانة، ابتسمت، لا بد أن ربحه كثير. الزبائن

لا يفاصلونه وكلمته واحدة. خرج الزبون الثانى. نظر إلى وابتسم كأنه يشاهدنى الآن. هل يوحى منظرى أننى سأشترى فستاناً ثميناً؟ ولماذا لا أشترى هذا الفستان؟ مخمل عنابى.إنه يلائمنى. ثابت، يا ثابت! لماذا لا أشتريه؟ تشترينه؟ أنا .. حسناً. حسناً لماذا لا أقدره؟

- وماذا تريد العروس؟

صحوت من أحلامى. اقتربت منه. لفظت الكلمات كأننى أهمس همساً. نظر إلى. تأملنى بقلق... ربما بفرح. لا.. ثم قال "نحن فدا الوطن والثورة!".

خرجت من الحانوت بسرعة، ودخلت إلى حانوت جاره. وهمست فى اذنه دون انتظار وخرجت دون أن أسمع جوابه. ودخلت. وخرجت. ودخلت. وخرجت.

وعادت الأقفال إلى الأبواب الحديدية.

وشعرت أننى كبرت عشر سنوات!!

*****

انتظرناه عند بوابة المدرسة. وصل إلينا وهو يحمل حقيبة مملوءة وزع البصل علينا. لكل واحد رأس بصل. وهذا لك يا سميحة. رأس بصل بلدى. العجلات حاضرة. سامى سيحرق الطواير. والرصاص؟ البركة فى الوادى. حجارته صلبة ملساء. عين يا ولد زين! الأعضاء الحساسة العين ومنطقة الأذن. وما رأيكم بالأنف؟ لقد أصبت جندياً على أنفه فبدأ يدور حول نفسه كالبلبل بسرعة رهيبة. تذكرت عندئذ معلم الجغرافية الفلكية عندما سأل تحسين عن سبب دوران الأرض حول نفسها فأجابه: لأنها بلهاء.

الاحتلال أبله. يدور حول نفسه. سيغمى عليه. سيسقط. وستمطر السماء وتغسل الشوارع.. وتشرق الشمس. ويقطفها ثابت ويضعها فى مزهريتى. ونبنى داراً فيها مجلى رخامى. وغرفة وسرير وشباك وستارة وقمر فضى.

وخلع قميصه.

يا لهذا الولد. رائع. لقد تلفع بالعلم ذى الألوان الأربعة.. حلّة. ارتدى

القميص. سار مرفوع الرأس. صعد السلم. العلم يخفق فوق بناية المدرسة.

سلاماً خذا

وتعلقت افئدتنا به.

وتقدمت سيارة وعليها خمسة جنود.

.... عن سميحة عن ثابت عن معلم التاريخ فى مدرسة مخيم الدهيشة الابتدائية أنه قال: وفى عين جالوت كانت نهاية هولاكو....

وكان الحاجز عجلات مشتعلة.

شاهدت مرة أفعى رقطاء فى ساحة دارنا. واختبأت، فتش والدى عنها فلم يجدها. فأحرق عجلا مطاطياً. العجلات المشتعلة تطرد الأفاعى.

وقفت سيارة الجنود. ترجل جنديان ليفتحا الطريق انهمرت الحجارة.

شتى يا دنيا وزيدى!

لعلع الرصاص.

اقتحموا الجدار.

رشوا الغاز.

تحسست رأس البصل البلدى فى جيبى.

وأغلقوا مدرسة.

وفتحوا سجناً.

******

حبيبتى. فلسطين حبيبتى. أنا أحبك وأعيش لأجلك. أحرق العجلات المطاطية، وأقذف الجنود بالحجارة لتكونى لى. وحدى. وحدى. أنا لك وأنت لى. أراك فى كل شىء. فى نوار اللوز الأبيض وفى شقائق النعمان الحمراء وفى العشب المبلل بندى الصباح وفى وجه راعى الحملان الأسمر.. وفى نجمة

الصبح.

- يا سميحة انت الوطن!

- أنا يا ولد؟! أتعرف من أنا؟ أبى يبنى لهم الملاجئ فى كريات أربع على أرض الخليل. هل صحيح يا خليل الرحمن أنك أبونا وأبوهم؟ وأنا أحلم بدار لها سقف باطون وفيها مجلى وحنفية ماء وغرفة وسرير وشباك وبرداية.. وقمر...

يا قمر وجه حبيبى أجمل من وجهك.

حبيبى ذكى وأنت غبى.

حبيبى شجاع وأنت جبان.

حبيبى يقاوم الاحتلال وأنت تنير على الجميع.

حبيبى يرفع العلم ويشعل العجلات ويقذف الجنود بالحجارة ويوزع البصل البلدى ويقاوم الغاز.

وحبيبى ينام هذه الليلة فى المسكوبية.

يا فلسطين أنا أحبك. وثابت يحبك. أراك ياحبيبتى قلباً كبيراً رأسه فى المطلة وقاعدته فى النقب وبه اسمان يتعانقان.. ثابت وسميحة.

حبنا يا حبيبتي ثابت.

ثابت يرفع العلم فى ساحة البلدة. وأمى تزغرد. والصبيان والبنات ينشدون...

لك حبى وفؤادى.

لك حبى وفؤادى.

*****

الهاء: هدموا.

والدال: داراً.

والميم: من مخيم.

والألف: الدهيشة.

فماذا فعلتم؟ ماذا فعلت يا منى ويا سميرة ويا خديجة ويا عاطف؟ وماذا فعلت يا أحمد ويا سميح ويا حنا ويا على؟

أبى وأبوك يبنيان لهم البيوت وهم يهدمون بيوتنا.

نحن نزرع الورد وهم يطلقون الرصاص.

وثابت قوى ولن يعترف.

ونحن نكرهكم نكرهكم نكرهكم نكرهكم.

يلعن امهاتكم.

لقد صرت أعرف كيف أحول الزجاجة إلى قنبلة حارقة.

الرصاص لا يقاوم بالورد.

والدبابة لا تقاوم بالزنبقة.

*****

جلست على خشبة من جذع زيتونة رومية وشرعت أجلى الصحون والملاعق والفناجين .

غرّد عصفور وداعبت الشمس عنقى.

قال لى: سأقطف الشمس وأضعها فى مزهريتك.

جاءت سيارة عسكرية. هجم جندى علّى ولف شعرى على قبضته وسحبنى إلى السيارة.

مخربة...

فتح...

زانية...

وتلقين القنابل المحرقة على السيارات؟

... ...

... ...

ولمع نور شديد في الغرفة. وبحركة لا ارادية مسحت أم سميحة عينيها. وشاهدت الشمس كأنها برتقالة صفراء تنزل إلى مزهرية ابنتها وتستقر على بابها.

- ١٩٨٢ -

ملاحظة: معانى الكلمات العبرية:

يرشلايم: القدس.

بيت ليخم: بيت لحم

حيفرون: الخليل

يريحو: اريحا

شلانو: لنا

لعربيم: للعرب

حمدبار: الصحراء



يلعن أبو..



(إلى توفيق زياد صديقاً ورفيقاً وقائداً)



– ف –

منذ عاد محمود عبد الكريم إلى المخيم فى عصر ذلك النهار ولا يشغله الا هذا السؤال الرهيب.

يقابلك فى عرض الطريق. يطلع وجهه فجأة وأنت واقف فى محطة الباص. يقتحم عليك خلوتك فى البيت. يفاجئك فى القيلولة. يعكر عليك متعة شرب قهوة الصباح. يدخل دارك – وكأن الأرض انشقت وخرج منها – وأنت تتناول الغذاء ويلقى السؤال عليك دون مقدمة أو تحية أو تنبيه فتتلعثم. وترتبك. وتحوقل. وتعوذل. وتلعن دين الدى كان السبب. ولكنه يبقى واقفاً أمامك، منتظرا اجابتك. فاذا انعدم الرجاء وانقطع الأمل – وسرعان ما ييأس فالرجل بصلته محروقة – غادرك وهو يردد السؤال. ويبحث عن المسؤول القادم. وقد يكون المسؤول مسرعاً لأمر ما. فقد يكون – مثلا – أبو سليم البقال مسرعاً ليلحق بصلاة العصر جماعة. أو المدرس مصطفى مهرولا كعادته كل صباح ليصل إلى المدرسة قبل قرع الجرس وينجو من تأنيب المدير ووجهه الكشر. وقد تكون أنت محافظا على ما تبقى من هيبتك فى سيرك لتلحق بباص المدينة. وفجأة يعترضك محمود عبد الكريم ويلقى السؤال عليك دون تحية الصباح – يا فتاح يا عليم – فلا تلبث أن تقف بل تتسمر وترتبك وتتلعثم وتشعر أن لسانك ثقيل وأنك عى لا تستطيع أن تجيب ولا تقدر أن تتجاهل الرجل. وتنظر إليه وتبتسم راجياً ان يتركك وشأنك. فالأمر مستعجل والدقيقة لها ثمن. ويظهر أن من قال "الوقت من ذهب" قد كان فى مثل هذا الموقف. والزمن يعدو. والاجابة لا تستطيع أن تقولها. ولو حاولت لجمدت فى

حلقك. وتلعن الحظ السيئ: لماذا أنت بالذات دون خلق الله، قد وقع عليك هذا السؤال؟ وتنظر نظرة توسل واستعطاف. يا عم محمود. يابو العبد، اتركني! هات أبوس ايدك. أنا مستعجل يا رجل. ثم، كأنك قد حررت نفسك، تتجرأ وتتركه واقفاً مشدوهاً ينظر إليك ببلاهة وعتب. ويودعك بنظرات ناطقة معبرة. ويهز رأسه عدة مرات وهو يتمتم كلمات ما سمعها أحد. ولا فك حروفها أحد. وقد اختلفنا في حل طلاسمها مرات ومرات فما جرؤ أحد منّا على سؤاله.

والعجيب أننا نعيش في عصر عصبي المزاج، عنيف، يده والضربة، والواحدمنا يغضب وينرفز لأقل سبب وأتفه شئ. فقد تثور على الزوجة وتلعن أمها التي أورثتها عاداتها السيئة. وقد تثور على ابنك وتشتم أباه الذي غلط وخلّفه. وقد تثور على زميلك وتلعن ساعة النحس التي ربطت بينك وبينه في العمل. ثم ترى نفسك مضطراً بعد ساعات، لتصالحهم وتعتذر لهم. وعفا الله عما مضى.. وعما جرى، ومعلش. الدنيا ضغط. والعمل ضعط. ويا إمرأة أنا منرفز من الشغل. ويا زميل أنا زعلان من البيت. ولكنك، عندما تلتقي رغماً عنك بمحمود عبد الكريم ويستوقفك، ترتبك وتتلعثم وتبتسم وتتوسل. ولم يحدث مرة - لا أنت ولا غيرك ولا حتى أبو رعد الذي يتشاجر مع ظله ولا يطيق الذبابة - لم يحدث ان نرفز على محمود عبد الكريم، أو ان سار غير مهتم به وبسؤاله. ويا سبحان الله! كأن الرجل يملك قوة سحرية أو مغناطيسية قد وهبه الله إياها فجأة دون غيره من البشر فما يكاد بنطق حتى تقف وترتبك وتتلعثم وتبتسم راجياً وتنظر متوسلا. والبعض يعرق عرقاً بارداً أو يصفّر لونه. وان كانت إمرأة ضعيفة القلب، مثل حليمة، يرتعد جسدها وتبسمل بحروف متقطعة. ودخيلك يا سيدى أبو الهيجا. وقد يتجاسر زوجها ويعلن غضبه بعد ابتعاد محمود عبد الكريم ويقولها بصوت عال: يلعن دين الاحتلال. فلا تغضب اذا سمعت مسبة الدين، ولا تستغفر ربك الذى خلقك وقدر لك كل وكتب عليك كما كتب على الذين من قبلك. وقد تفتيها كما أفتاها الشيخ مسعود امام القرية: ان مسبة الدين، فى محلها تساوى ملك فدان.. والذى شاهدناه وعشناه هو الجحيم.

والأعور الدجال قد مر. وارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد "يميت" التى بنوها قد هدموها. فماذا بعد سدوم وعمورة يا رب المعمورة؟ ها تكلم! فلا يجيب. وأنت لا تجيب. وسؤال محمود عبد الكريم سيكون

لصاحب القسمة والنصيب.

- ل -

عن محمود على طه عن على الخليلى عن أسعد الأسعد عن كريم خلف عن موظف فى بلدية رام الله التى حلها الاحتلال - فما قلع الشوكة من حلقه - عن عامل نظافة من المخيم عن جارة عامل البناء أنه قال:

... وكان محمود عبد الكريم عامل بناء. وقلنا له - يومئذ: ان تترك العمل معناه أن يجوع أهل بيتك. فتركنا ومضى وهو يقول: لا أبنى لمن يهدمون بيوتنا.

ووجد راحة فى عمله الجديد. يملأ عربته الصغيرة بمختلف البضائع الصغيرة. ويدفعها أمامه إلى المدينة المجاورة قبل الفجر ويعود مع العصر إلى المخيم..إلى أن كان الاضراب وكانت المظاهرة!

وانقطعت أخبار الرجل. سأل عنه المحامى وزير الدفاع والقائد العام ومدير السجون. وبعد ستة أشهر وبضعة أيام عاد إلى المخيم فوجد باب داره مغلقا. وقف أمام الباب. واسترقنا النظر اليه وازدادت دقات قلوبنا. ودق الرجل الباب فما أجابه أحد فدق ودق ودق حتى تجمع خلق كثير وما نبس أحد منهم ببنت شفة. فوضع كتفه على الباب وثبت قدميه فى الأرض. ويا همة الرجل! وانخلع الباب ولم يجد محمود عبد الكريم أحدا. فالتفت إلى الناس والشياطين تخرج من عينيه والقى سؤاله الرهيب. فارتبكو وتلعثموا..

وتفرقوا..

وسار الرجل فى شوارع المخيم وأزقته يسأل السؤال لمن يقابله..

وما زال يسير..

وما زال يسير..

وما زال....

وما .....

و......

- س -

وخرجت نعيمة من البيت تحمل فى قلبها سبع قرنفلات حمر وهى تغنى:

والحداد بدو بيضة..

والبيضة عند الجاجة..

والجاجة بدها علفة..

والعلفة فى الطاحونة..

والطاحونة مسكرة..

فيها مية معكرة

والمية فى الأوده..

والأوده بدها مفتاح..

والمفتاح......

وخرج سامى يحمل فى قلبه تسع وردات جوريه حمراء وشدا معها. ولحق بهما حامد يحمل فى قلبه باقة من شقائق النعمان وشدا معهما. وانضمت عائشة

وعلى خديها جلنار وتلوح بمنديلها الأحمر... ونادت سمبرة من باب الدار وأمها تنعلها الحذاء: "يا نعيمة المحمود استنى!!"

وصارت جوقة.

قال سامى:

لا دودين ولا قمصية

ضراط ما بسخن ميه!

فرددوها وهم يضحكون.

وهتف حامد: يا كريم ويا بسام

شعبك أقوى من الظلام!

فرددوها بعزم وجد!

ونظرت سميرة إلى مركز الشرطة وهتفت:

يا واوى ويا ضبع

وش تعمل؟ جاك السبع!

ورددوها بأمل.

وأجابتها عائشة:

اهرب اهرب أحسن ما تنطخ

جاك يا ضبع صاحب الفخ!!

ورددوها فرحين.

وقالت نعيمة: يللا معا.

وسارت الجوقة.

... والخشبة عند النجار

والنجار بدو منشار

والمنشار عند الحداد

والحداد بدو حديد

والحديد فى المخزن

والمخزن بدو مفتاح

والمفتاح عند... عند... عند...

عند....

وتوقفت الأصوات لحظة. وصمت الحى. وارتبك الصغار. وارتفع صوت نعيمة محمود عبد الكريم معلناً "وجدتها وجدتها"

والحداد بدو حديد

والحديد فى المخزن

والمخزن بدو مفتاح

والمفتاح عند آبو عمار .. و.. و...

- ط -

.. عن جريدة "الاتحاد" عن مصورها قال:

ولما كانت الجوقة تنشد، والطفولة تغرد، ووصل جيب أوكمنكر، محمل بجنود وعسكر. فأطلقوا رصاصة. وقالوا لا مناص. فسقطت على الأرض نعيمة، من رصاصة جندى لئيمة.

وعلى ذمة الرواى، ارتجف حاجب أمها فصاحت صيحتها، وعدت حافية، وجدائلها عارية، تصرخ: نعية! نعيمة! فلما وجدتها ضمتها وقبلتها، وبعدئذ حملتها. وتبعتها النسوة يهتفن:

يا محتل اطلع بره!

فلسطين عربية حرة!

وسقطت على النساء قنبلة غاز.

فأخرجن رؤس البصل من الجيوب. يا جيوب النساء، التى كنت تحملين العطر والحلوى والهدايا، كيف صرت مملؤة برؤوس البصل؟!!

وهتفت أم نعيمة!

يا بيغن ويا شارون.

هذا وطنا واحنا هون

ورددت النسوة الهتاف.. ثم غنين "بلادى.. بلادى.." وهن يحاصرن مركز الشرطة.

وبندقية "أم ستة" تواجه مقلاعا.

ورصاصة تواجه حجرا.

وقنابل تواجه بصلا.

ودروع فولاذية تواجه صدورا عارية. وعلى ذمة الراوي: تقدمت يسرى، أم نعيمة، ورفعت العلم ذا الألوان الأربعة على مركز الشرطة.

وزغردت نساء وسقسقت عصافير. وأخضرت أوراق الأشجار.

وتفتحت براعم.

وتبسمت ورود.

وكان يا ما كان.

وتقدمت مجنزرات. وتبعتها دبابات وآليات. وأصيبت أم نعيمة وسلفتها.. وجارتها وعمتها..

وجاءت سيارة الاسعاف فاطلق العسكر الرصاص على العجلات. فأسرع الشباب ورفعوا السيارة وغير آخرون العجلات، ونقلوا الجرحى إلى مستشفى

المقاصد الخيرية:

وعلى ذمة "الاتحاد" وذمة مراسلها وذمة مصورهاأن هذا حدث فى نسيان.

- ى -

- روى شاهد عيان:

ولما دخلنا مستشفى المقاصد الخيرية، فى القدس العربية، شاهدنا على أحد الأسرة طفلة فى السابعة قد خردق الرصاص جمجمتها وبجوارها أمها وقد اخترق الرصاص صدرها، وعمتها ينزف الدم من بطنها وساقها.. وقد حاولنا ايقاظهم فما أفلحنا.. كانوا فاقدى الوعى ويقفون على حافة الموت. وقالت الممرضة. اسمها نعيمة.. فناديت مثنى وثلاث فحركت الصغيرة راحتها وأشارت بشارة النصر بأصبعيها..

وعم أحد المرافقين:

أن البرق قد لمع!

- ن -

- هل شاهدتهم؟

نعيمة وأمها وعمتها. هل عدن إلى اللد وتركننى هنا؟

أجبنى بالله يا يحيى! نحن أولاد مخيم واحد. أكلنا من طحين الاعاشة. وتظاهرنا ضد موظفى وكالة الغوث.. وسجننا عسكر الملك أيام زمان وتظاهرنا ضد الاحتلال. وحرقنا دبابة بزجاجة مولتوف فأذاعت خبر العملية اذاعة مونت كارلو.

بشرف والدك المدفون فى الرملة.. هل شاهدتهم؟

كانت يسرى تطرز العلم منذ أشهر. كانت تطرز برغبة شديدة، أناملها تداعب الابرة والقماش بمحبة. كان قلبها وعقلها وحواسها فى القماش والخيطان.. الأخضر حشيشى، والأبيض ثلجى، والأحمر جورى، والاسود

ليلى. وكنت أتشاجر مع نعيمة حول من سيرفعه. أنا أم هى!

البنت تقول: أنا بابا. وأنا أقول أنا يا بنت. ويسرى تطرز. والاحتلال قاعد على صدورنا. خمسة عشر عاما وهو رابص مثل أبو رابوص.

وأحضرت عصا سنديان. عصا طويلة كالرمح، يجب أن يبدو من بعيد. شممته عدة مرات. به رائحة الزيتون والزعتر والبرتقال ويسرى. بالله عليك يا يحيى أما شاهدته؟ الجار للجار يا رجل. هل حملته نعيمة وانعكس لونه يا برقوق! الأحمر على وجنتيها؟ يا شقائق النعمان. يا برق! هل عدت مع أمك وعمتك إلى اللد وتركتنى هنا؟

هيه يا رجل..!

لماذا تتركنى؟

بعرضك. بشرفك. بأرضك.

بالألوان الأربعة. هل شاهدتهم؟

نعيمة.. ويسرى.. وعائشة.. والعلم..؟ هيه يا رجل..!

قف!

يلعن أبو الاحتلال!!

٢ إيار ١٩٨٢

* يعمد الكاتب، فى هذه القصة، إلى استخدام بعض الأسماء الفلسطينية المعروفة، فعلى الخليلى وأسعد الأسعد شاعران فلسطينيان معروفان، وكريم خلف هو المناضل المرحوم الذى انتخبته مدينة رام الله رئيسا لبلديتها، وقد حاول الصهاينة اغتياله بتفجير لغم سيارته، وهذا ما جرى أيضاً مع المناضل بسام الشكعة الذى تشير إليه القصة أيضاً، ومن المعروف أنه فقد رجليه بلغم صهيونى فى سيارته اثر انتخابه رئيساً لبلدية نابلس.



العـــلم



عاد يقفز كالدورى فامتلأ البيت بهجة وتبسمت الستائر. أبقى جسده على صدري. عانقني. قبلني وقال: ها احزر ما أريد.

هذه عادته كلما طلب مني شيئاً جديداً. دراجة، كرة صفارة. يقول: ها احزر ما أريد!

أجبته بصوت رزين: أعرف مائة بالمائة.

– ان كنت شاطراً فقل!

ابتسمت. تفرست في عينيه ثم ابتسمت مرة أخرى وكأنني أقول له: وجدتها!

– أعرفت؟.

– طبعاً.

داعب وجنتي بأنامل الزغلول وقال: طيب، قل يا فهيم! حدقت في عينيه اللوزتين وقلت له: ماذا أقول؟.

ضحك بصوت عال فرقصت ضحكته على جدران الغرفة وتعمشقت على السقف فأنهمر المطر.

في ذلك العام سقط مطر غزير. فتفجر الماء من نبع القرية الذى جف بعد أن سرقت الشركة الحكومية مياه أرض القرية الجوفية لتسقى أراضى الكيبوتس.

وتوافدت أسراب الكركس حين سمعت أغنية الخرير. وتوالت صبايا البلدة يغسلن البقول في سلالهن ويرتشفن الماء بشفاههن اللعس.

وشاهدت أمى أنثى الكنارى تضع البيضة الأولى فى القفص فغمر الفرح وجهها وقالت: تباشروا بالخير، فأربع سنوات والكنارى الذكر يناغى انثاه ويلاطفها ويبرقم حولها ويقبلها ويضمّها ويغفر الحب بقدميه أمام منقارها ويشدو لها، أغانى الحب مع بزوغ الفجر.

ورخمت على بيضتيها ووقف قبالتها ولهان يطعمها الحَب ويسقيها الحُب

وزغردت أمى.

وانتشر الخبر وشاع، فهمسته أزهار الليمون فى اذان النحل وغرده الهزار وخجل الورد الجورى وقتل الحسد النرجس.

- ها ماذا قلت؟ بماذا تحلم؟.

- أنت لا تريد شيئاً ولا ينقصك شئ. عندك طابة ودراجة وصفارة ،دمى حيوانات و.. و...

وقف وحدق فى وجهى وقال: أريد علماً!

- ماذا؟

- أريد علماً. علماً. الا تعرف؟ عَ.لَ. ماً.. عَ. لَ.ماً!!

ما فهمت.

الأطفال يطلبون العاباً... حلوى... شوكولاطة... علكة... بوظة... وقد يطلبون قميصاً أو حذاء. أما أن يطلبوا علماً فلا أفهم. ويبدو أنى نسيت مرحلة طفولتى أو أن الاجيال تتغير بسرعة، ففى صغرنا كنا نتوسل لأبائنا ليشتروا لنا فخا لنصيد العصافير أو نطلب عود قصب لنحوله حصان عنترة. ونبكى ساعة كاملة على عتبة الدار لنأخذ قرشا نشترى به هريسة. واليوم يشترون الدراجة والقطار الكهربائى وألعابا لتقوية الذاكرة وتشغيل الفكر والخلق والابداع. وأيامنا كنا نملأ جيوبنا بحب القمح أو الذرة ونعدو إلى حانوت الحاج رحمة ليقايضنا بالنعناع والعجوة، واليوم يشترون البوظة والشوكولاطة، وأشياء نعرفها وأشياء لا نعرفها. أشياء ذقناها من أيديهم

وأشياء أبينا أن نطعمها إجلالا لأعمارنا وكى لا نكسر هذا الحاجز الزجاجى الشفاف بين الوالد وبين الولد.

والحق الحق أقول اننى اشترى اللعبة وقطعة الحلوى وغيرهما لى وله. اشتريها له ليتمتع بها ويفرح بها ويعيش طفولته متنعماً، واشتريها لى لأعوض عن كل ما فاتنى وما خسرته.

وعندما أراه يلعب بألعابه تنازعنى نفسى لأخلع ثوب الوقار وأركع على ركبتى وألعب معه.

وحينما يشترى البوظة ورأس العبد أشعر وكأننى أمصها وأقضمها فاتلمظ.

حاولت مرات عديدة أن أرفض طلباته لضيق ذات اليد أو ليسمع مرة كلمة "لأ. مش ضرورى مش لازم، هو أبوك مليونير؟ لأيش البعزقة". ولكننى أعود وأضعف. فعرف بذكائه الفطرى مواطن ضعفى واهتدى كيف يحك لى على هذه المسامات.

ولكن....علم؟

صدقنى، لا أفهم يا ولدى.

وأطلق كلماته كإنفلات السنونو وخفقها. وروى لى بأسلوبه الطفولى آن المعلمة شرحت له ولطلاب صفه عن يوم الاسثقلال. استقلال الدولة. وزينت غرفة الصف بالأوراق الملونة وأعلام الورق ذات اللونين الأزرق والأبيض والنجمة السداسية. وقالت لهم ان البلاد تقدمت وتطورت وصار فى البيوت ماء وكهرباء والدنيا بخير. وغنوامعها: بعيد استقلال بلادى، غرد الطير الشادى، عمت الفرحة البلدان، حتى السهل والوادى. فوق المساكن فى كل الأماكن. ارتفعت الرايات... والزينات... وغدا سيلبسون القمصان البيض والبناطيل الكحلية. بناء على طلب المدرسة. سيحمل كل طفل علماً ورقيا ويقومون بعرض فى ساحة المدرسة وهم يرتلون ببراءة "عمت الفرحة البلدان".

وخالد يريد علماً. علماً صغيراً. من ورق. أزرق وأبيض. يرفعه بيده

كالحمامة.

ولماذا يا خالد؟ الأمر مش ضروري. والعلم غير موجود. وحوانيت القرية فيها ارز وسكر وزيت معمل وفاصوليا لا أعلام ورقية أو قماشية. ولكن المعلمة قالت. طلبت. أمرت. وأوضحت أن المواطن المخلص الذى يحب بلده يرفع العلم.

هيك يغنى.

لا تصدق يا خالد. معلمتك لا ترفع العلم فى بيتها. والقضية قضية شغل، أكل عيش. والعلم يا حبيبى.. يا حبيبى..

فقال ماله.؟

ماذا أقول له؟ عمره خمس سنوات وبضعة أشهر. برىء كوردة بريّة فى نيسان. لا يعرف أين أعمامه واخواله وأقاربه. لا يدرى ما جرى. وما جرى. وما جرى. ولماذا أحكى له؟ لن أعلّمه الحزن. خالد يحب الحياة. ونصبة الزيتون المرعنة تكره الرياح الخمسينية. لن أروى له ما جرى. فالفرحة لا تعم السهل والوادى. ولا ترقص على الحيطان ولا على سقوف الباطون والطين والتنك. والمعلمة. الناس يريدون أن يأكلوا خبزاً. رزق العيال. ويا ولد! والله لو وقفت على رأسك، ولو بكيت، ولو تحننت، ولو تواسطت أمك وجدتك.. لن أفعلها. اسمع يا خالد! لا لا. مافيش علم! لا يعنى لا ولا تلح!.

وهدد بالانقطاع عن المدرسة. حسناً. نخرج إلى الجبل. نتنزه فى الكرم الذى غرسه جدك وسلبونا أياه. ونرى الفرحة التى عمت السهل والجبل والوادى.

لو كنت كبيراً لرويت لك ما جرى. مهلا ستكبر وتقرأ فى ذكرى ما جرى للمدن والقرى، والبساتين والكروم، والآبار والعيون، والشيوخ والأطفال، والرجال والنساء، ويريدون أن تغنى وترقص بالعلم فى ذكرى ما جرى.

لا. قلنا لا. سنقطف الأزهار. وستطارد الفراشات الملونة. ونأكل الخبز

المدهون بزيت الزيتون واللبنة الطرية مع الخردلة المقرة، تماماً كما فعل جدك وجدتك وأبوك فى تلك الأيام التى اغتالوها.

علم؟

لو تعرفه يا ولد.

ما رأيك لو نذهب غداً إلى مدرستك وتقف أمام معلمتك الحلوة وتنشد.

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا. وسلها: هل تعرف من القاتل وهل تفهم المعنى؟

وذهب الربيع.

وجاء الصيف.

وبقيت أطلال تقول من هنا مرَّ الغزاة. هنا كان مخيم الرشيدية وعين الحلوة.

وارتعد ضمير العالم ثم انكمش كالبزاقة وهو يشاهد على الشاشات الصغيرة صورة شيخ قتيل وعكازه بجواره فى زقاق فى صبرا، ورأس طفلة بلا عينين وبجواره دمية فى حارة شاتيلا.

اذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الانسان مالها، يومئذ تحدث أخبارها..

وعاد يقفز كالدورى فامتلأ البيت فرحاً وسقسق الكنارى وقفز الدورى وتضوع عبير الليمونة وارعنت أفنان الزيتونة..

عانقنى.. وقبلنى. وقال: اسمع يا أبى.. وأنت يا أمى.. هل تعرفان ما رسمت اليوم؟

وصمتنا.

- ها. احزرا!!

وردة غزال. فراشة. أسد. نسر. زيتونة. برتقالة

- احزروا.

وابتسم.

دار. مدرسة. طفل. مزرعة..

- لا. لا. لقد رسمت علماً. يا الله. ما أجمله. وقفز عن الكرسي وعدا إلى غرفته وهو يقول: بجنن، بجنن!!

ونظرت إلى فاطمة حزيناً معاتباً. وتسمرّت نظراتها في. وبقيت يداها ممدودة إلى شئ ما... الولد ما نسي. العلم. يبدو أنه ما عرف ما جرى. ما سمع!! وما رأى ما جرى. ما جرى. وما زال يجرى. ويجرى. ولا يعرف ما يرتكبونه يومياً..

وعاد خالد والفرح يغمر وجهه، والحياة تتدفق أمامه ودفتر الرسم في يده الملائكية.

- انظرا!!

ونظرنا...

علم ذو أربعة ألوان ساطعة، مكتوب فوق الرسم بخط تلميذ في الصف الأول الابتدائي: "من كابول لبيروت، شعب حي ما بموت!!"

١٩٨٢/١٢/٢١

* كابول قرية في الجليل وهي الموطن الثاني للكاتب منذ العام ١٩٤٨

خـــارطة جديدة
لـوادى النسنـاس



وتعلقت العيون بي. العيون الزرق والخضر والسود والعسلية. وانتابني شعور غريب شعور المفاجأة التى تقع من السماء فى يوم صاف مشمس دون أن ينتظرها المرء أو يحلم بها مجرد حلم عابر. شعور الغرابة والاستهجان معا اللذين يبديهما الأب وهو يسمع طفله يحدثه عن أمور فوق سنه أو فوق تجربته أو فوق عالمه. شعور المثقف القروى وهو يسمع فلاحا عجوزا يحدثه عن أزمة البطالة فى بريطانيا والصراع الدولى على مضيق باب المندب. وربما أكثر من هذا وربما كل هذه الأمور مضافا إليها احساسك وقد علمت أن رجلا غريبا يعرف أمرا خاصا بك، بحياتك، ببيتك، بسر من أسرارك، بجزء منك!!!

ونظرت إلى الوجه الذى سألنى محاولا أن افترسه، ان أعيد شكل الأنف إلى سلالة ما، أو ان اربط الحاجبين بعائلة ما، أو ملامح الوجه بذرّية ما - واعترف أننى عجزت. الرجل - حتما ليس سائحا لم يزر حيفا زيارة عابرة. ولا يعقل أن يكون وادى النسناس قد قطع البحر المتوسط وجبل طارق وجبال الألب والبراني والمحيط الأطلسى بقضاياه العديدة المتراكمة دون حل ووصل صيته إلى هنا، أم أن العالم صار واحداً كما اعتاد أن يفرض علينا معلم اللغة العربية فى دروس الانشاء؟ لا يمكن. فعباس رئيس لجنة الحى فى وادى النسناس ما زال منذ خمس سنوات يصرخ وينادى ويكتب العرائض ويملأ ركن رسائل القراء فى الصحف ويعقد الاجتماعات ويرفع الشعارات ليوصل وادى النسناس إلى شارع حسن شكرى بالوادى: ولم يفلح يا حرام!

نصف كيلو متر. وربما تزيد أمتاراً معدودة، تفصل وادى النسناس عن أحياء الشمس والهواء والأزهار الا أن "عباس" ما استطاع فى خمس سنوات أن

يقطعها. لم يستطيع أن يجلب الشمس والهواء والأزهار للوادى، ولم يستطع أن يسحب وادى النسناس إلى حيث الشمس والهواء والإزهار. وتصوروا - يا عالم - واديا دون شمس وهواء وأزهار!

أبداً.. لا يمكن. وما دام سكان الكرمل لا يعرفون الوادى إلا أيام عيد الفصح حيث يأتون لشراء الخبز العربى فلا يعقل أن يطير اسمه إلى دولة أوروبية أو أمريكية أو أفريقية أو آسيوية. ولا بد من أن الرجل تربطه علاقة ما بالوادي. هل فيه ملامح من عائلة الطيراوى، الأنف ليس بالضبط. من عائلة الخمرة سمرته ليست تماماً! من عائلة عابدى؟ ملامح الوجه تختلف. من عائلة جمّال؟ دلول، شبلاق، أكحل، حجير، جربوع. دحبور، ابراهيم، خليل، صهيون، عصفور؟!

ومر في خاطرى شريط أسماء عائلات حيفا التى كانت حيفاوية والتى ما زالت حيفاوية والملامح البارزة لكل عائلة. الا أن المفاجأة أذهلتنى وأقعدت فراستى.. وأعادت ذكائى إلى آلاف الأميال.

ودلقت كأس البيرة فى فمى لاطفئ حرارة جوفى واخفف من شدة حرارة الطقس الكونى، ولا نقد نفسى من هذه الورطة. ولماذا ورطة؟ها.. لماذا أورطة؟

وكومضة البرق خطر لى خاطر عجيب فأضحكنى ولا أدرى لماذا ضحكت العيون المتعلقة بى! كان الخاطر فيه لطافة وغرابة السؤال واللقاء. لعل الصديق الفرنسى يحسب وادى النسناس حياً مثل الحى اللاتينى أو متحفا مثل "اللوفر" أو قوسا مثل قوس النصر ولعله يظنه علما بارزاً، مثلا زعيم طلبة متمرد يصارع الحكم والاستعمار والبيروقراطية والصهيونية والاستغلال ويقود كل يوم مظاهرة ويعرف البرش وعصا المحقق وينام فى الزنزانة. ولعل الصديقة التشيلية الحلوة تعتقد أنه سجين سياسى أو شاعر مثا بابلو نيرودا أو فنان مثل فكتور خارا اغتالة الفاشست أو اسم حركى مثل لثائر يحمل "الكلاشنكوف" وينتقل من غابة إلى كهف إلى جبل ويجتاز حدود الدول المجاورة مختفيا من طائرات الفانتوم الأمريكية. ولعل بقية الأصدقاء قد

ربطوا وادى النسناس بأمور غريبة عجيبة، وربما وصلوا بها إلى أنغولا أو موزمبيق أو أثيوبيا، وربما إلى مسرح الشوارع أو إلى أكلة شعبية غريبة.

يا وادى النسناس. يا غيتو النصف الثانى من القرن العشرين أى براق حملك وهبط بك فى بارك لينين. فى هافانا!!؟ والله أيها الصديق الفرنسى، لو كنت تعرف وادى النسناس لما عارضت السوفيت فى نقطة واحدة. أما أنا فأعرفه. وسائلى لابد أنه يعرفه. أنا من وادى النسناس وأميز رائحة هوائه. وأعرف أم حسن بائعة العلت والبقدونس والنعناع. وأبوحنا بائع شعر البنات. وكامل الأصلع بائع العلكة وشراب الليمون، والزعيم حمودة وعصابته التى يدفع لها التجار "الخاوة". والمرأة الطيراوية بائعة الفجل والبصل واللفت شتاء التوت والتين صيفا. وأم سعيد البدوية اللبانة التى تبيع الجبن الأبيض وتحلف بالنبى والخضر وأبنها سعيد أنه جبن ماعز أسود وهو جبن بقر هولندى، وأعرف طعم فلافل صالح أبو ظهر التى أسماها "فلافل الشاه" نكاية بجاره عزو الذى أسمى محله "ملك الفلافل" فدارت بينهما معركة عقائدية حول أنظمة الحكم. وأعرف مرزوق المسطول وشلته والخرابة وكلبة بوبى الذى يهرب الحشيش من وادى الصليب إلى وادى النسناس بكيس نايلون يضعه فى فمه. وأعرف نساء الوادى...، الأمورة بنت سعيد التى انتحر شاب زى الورد من أجلها وطلق ثلاث رجال نسائهم. وسعاد الخرساء وزينب الشقلة والحاجة عائشة وخولة قارئة الفنجان ونعيمة الشيوعية.

وتعانقنا.

شعرت - وهو يقبلنى - آنه يجهد نفسه ليشم رائحة ما.. شيئاً بعيداً، افتقده طويلا، ويجرفه حنين عارم نحوه، حنين الطفل الضائع الذى التقى بأبيه صدفة، حنين وشوق النهر إلى المصب، حنين المغترب إلى بيته وحارته وزقاقه، حنين الغصن إلى الجذع.

وسرنا خطوات. ولا أدرى كيف. ودعتنا العيون. وجلسنا على مقعد خشبى قرب البركة. وأشعل سيكارته وقال:

من وادي النسناس؟ يا هلا! قلبي دليلي. منذ رأيتك تذكرت الوادي. أنا حيفاوي. أنا من وادي النسناس. أنا أحمد داود. أعرف وادي النسناس جيداً. أعرف شوارعه وعماراته. أعرف شجره وحدائقه. أعرف روضة الأطفال والنادي أعرف الدور التي يتعمشق عليها الياسمين والدور التي أمامها زتزلخت ودفلي. أعرف أبو فريد الجمال صاحب الحانوت الذي كنت أشتري منه البالون والعلكة والملبس. أما زال الحانوت في باب شارع حداد؟ وأعرف صبحة البدوية بائعة البيض واللبن. وأعرف المرأة الطيراوية أم حسن بائعة التين. أعرف الدور. كل الدور وأسماء أصحابها. دار عائلة جربوع وجمال وحداد وفرنسيس وشبلاق وحجير والخوري. ودار نايف محمود. وبيت علي دلول - مسكين علي توفي في حادث طائرة - قل لي: من يسكن في دارنا؟ ودار جارنا صالح الخوري؟ هل تعرفهما؟ كان جارنا صالح يعمل في معامل تكرير النفط. وكان له بنت في جيلي اسمها رنا. جميلة وطاهرة كزهرة ياسمين في صباح حيفاوي ندي. كان لها دمية جميلة. وكان لي حصان خشبي صغير. كنا نلعب سوية في ساحة الدار. كنا نلعب كل الألعاب التي نعرفها. وأدعوها للغذاء مع عائلتي وتدعوني للغذاء مع والديها. وكانت العائلتان تسهران معاً ونقضي عطلة نهاية الأسبوع نتنزه معاً في الفرشلي المقابلة للحديقة التي تسمونه اليوم حديقة الأم. يشتري والدي اللحم من ملحمة الحاج تنكة.. أو من ملحمة خليل اللحام الشامي. الأربع ورقيات بنصف ليرة. وتشتري أمي الفحم من دكان دار الشماع في شارع الخوري والخبز من فرن الأرمن - هل ما زال فرن الأرمن في أول وادي النسناس من الشمال؟ - نشوي اللحم ونأكل. يتحدث الوالدون معاً. ونطارد - أنا ورنا - الفراشات الملونة. وفي الصيف كنا نسبح في أبو نصور والعزيزية وفي أثناء العودة كنا نعرج على الموارس نشتري الفقوس والخيار بالميزان العربي ونشرب كازوز وغنر في حي الألمانية. هل تعرف شيئا عن العم صالح؟ تقول أمي: أنها لا تزال تذكر - كما اليوم - يوم ذهبت العائلتان لسينما عين دور وشاهدتا "الوردة البيضاء" و"دموع الحب" ويوسف وهبي وليلى مراد ومحمد عبد الوهاب وأسمهان. لم أشاهد العم صالح وزوجته ورنا منذ أن نسفوا "دار حموضة" وتدحرجت براميل الديناميت من

"شبتاى ليفى" على الدرج. سألت عنهم كثيراً، لم أعثر على خبر عنهم حتى كان الصيف الماضى وانعقد مؤتمر الرسامين العرب فى دمشق، تعرفت على شاب يافاوى ومعوفة أبناء النكبة تتطور بسرعة إلى صداقة.

وفى احدى الأمسيات حدثنى عن عمله وعن عائلته وعرض أمامى صورة له مع زوجته وما كدت أشاهدها حتى صحت "رنا!!" ندمت على تسرعى فقد يظن الصديق الظنون بى. الا أنه أنقذنى عندما قال مبتسماً: ومن أين تعرفها يا لعين؟! فحدثته عن وادى النسناس والدمية والحصان الخشبى والرحلات إلى الكرمل والفرشلى والمحرقة، وشاطئ البحر وأبو نصور والعزيزية والألمانية والموارس ومار الياس والخضر. فقال مندهشاً: هل أنت أحمد داود أم أحمد خديجة؟ فكدت أطير فرحاً - يظهر أن حياتنا صارت مفاجآت. وقلت وأنا أعانقه: يعنى، رنا حدثتك عنى. عن عائلتنا. عن طفولتنا. عن أمى خديجة. كانت رنا تنادينى: أحمد خديجة. ولولا شقونة أولاد المخيم لتكنيت باحمد خديجة ولكنت واحداً منالذين عرفوا باسماء أمهاتهم عند العرب مثل عمرو بن هند.

أنا يا عزيزى أحب أمى حباً يفوق كل تصور ولولاها ما كنت أحمد داود الذى يجلس معك فى بارك لينين فى هافانا ويعرض لوحاته فى نادى الفنانين. ترو. لا تسخر منى. أمى نهر حنان. أمران أحبهما فى الدنيا. أمى ووادى النسناس. وبين الاثنين وحدة عضوية. لولا أمى ما عرفت وادى النسناس. وعندما أشاهدها أتذكر الوادى وأرى فى وجهها براءة صديقتى رنا. وعندما أقبلها أشم عطر ياسمينة البيت فى وادى النسناس. حدثنى بحياتك ألا تزال الياسمينة باب دارنا؟ هل يهتمون باسقائها بالماء النظيف كل صباح؟ أما زال عبيرها يتضوع فى الشارع وعلى بيت الجيران؟ ومن يسكن فى بيت صالح الخورى وهل له بنت عذبة مثل رنا؟ وهل ما زالت شجرة الزيتون الخضراء فى ساحة الدار تعطى الثمار وتعشش بها اليمامة؟ كنت ورنا نلعب فى ظلها ونغنى:

قديش كنا يا عيونى

نلعب تحت الزيتونة

قديش كنا نتمنى

ونحبك يا زيتونة..

يا زيتونة يا زيتونة

وتذكرت عباس، ولجنة الحى التى تكافح منذ خمس سنوات لتحضر الهواء والشمس والأزهار لوادى النسناس، والأطفال ذوى الوجوه الغبراء، والبيوت المتداعية، وشاه الفلافل، ومرزوق المسطول، والزعيم حمودة وعصابته والكلب بوبى وتجارة الحشيش والخرساء والقواد وبائع الترمس والفول المملح وزينب الشقلة وقارئة الفنجان الدجالة والحاجة عائشة ونعيمة الشيوعية وحنا عامل المطبعة ومشيل البقال والخير والشر والقبح والجمال وغمازتى بنت سعيد الأمورة وضحكتهاالسكس وهى تطل من وراء الشباك.

ولا أدرى لماذا ربطت بينها وبين رنا وقررت أن البيت المجاور هو بيت أحمد داود. أحمد خديجة. حيث كانت أمه تسقى الياسمينة وتشرب قهوة الصباح مع أم رنا فى مناخ عبيرى. هل أقول له أن شبابيك الدار مخلعة والقصارة متساقطة والحى قاحل، لا شجرة ولا زهرة، لا ياسمينة ولا دفلى ولا زنزلخت. هل أحدثه عن البندورة المخمجة والخضار المتعفنة، فى زقاق مار يوحنا الذى ما عرف الاغتسال منذ ربع قرن أم أحدثه عن زاوية الموت؟

ولم أتمالك نفسى الا وأنا أقول: سقاك الله يا وادى النسناس!!

فجحظت عيناه وسألنى: ماتت الياسمينة؟ لا يمكن ان تموت. الياسمينة تنتظرنا. لقد زرعت أمى واحدة مثلها أمام بيتنا فى مخيم اليرموك، وترعاها كبؤبؤ عينها. وحينما يتضوع عبيرها فى الصباح تشم أمى رائحة الدار ووادى النسناس والكرمل وحيفا. وتنظر إليها أمى وتقول: من أين للشام ندى كندى الكرمل!! لا تعجب. أمى فنانة بطبعها ولولاها ما حملت ريشتى ولا عرفت الألوان والظلال. لقد مات أبى منذ تركنا الوادى وسكنا فى مخيم اليرموك. مات وهو حى. أرجوك أن تفهمنى. أبى ميت بالنسبة لى ولأختى يذهب

صباحا ويعود مساء. مات الحب والحنان والعواطف فى قلبه. مات البكاء ومات لضحك. مات اللطف وماتت الابتسامة وماتت الحياة فى عالمه. كل شئ مات منذ بدأ بعمل فى غسل الموتى وتكفينهم ودفنهم. لقد خسرناه!! افتقدته وأضاعته أختى. وعوضتنا أمى بحنانها النهرى

كان موت والدى هو الموت الأول فى حياة الأسرة. الا أن موت أختى كان الصدمة الكبرى. ماتت مريضة بالسل فلطمت أمى وجهها ونتفت شعرها ومزقت فستانها الوحيد وجلست - يومئذ - عند الجدار أبكى. كنت أحبها. وكنت أرافقها لنقطف عصا الراعى من جبل الكرمل قرب مار الياس! ولنجمع الصدف من شاطئ العزيزية. كانت تكبرنى بسنتين وتحمينى من الشوك ومن اعتداء الصبية الشياطين. وعندما سكنا المخيم صارت تصحبنى كل صباح - ونحن نلبس ملابسنا الرثة - إلى مقاهى دمشق. وندور حول الطاولات ونقف أمام السادة الزبائن وهى تنشد:

هذا الولد كان أمير

كان غنى وابن مدير

كان عنده حصان وسيارة

وكان لنا ياسمينة وعمارة

وبعد الفراش والحرير

صار ينام على الحصير

لا ياسمينة ولا عمارة

وساكنين فى وسط الحارة

ويعطف الزبائن علينا فيعطينا هذا قرشا وذاك تعريفة وأكاد أرقص فرحاً اذا أعطانى أحدهم شلنا. لن أنسى تلك الأيام. ولن أنسى أختى. لو عاشت لكانت شاعرة، رغم أننى أتساءل من أين جلبت "ابن المدير" هذا فى أغنيتها ؟ ولكننى حللت المشكلة عندما قرأت أن أعذب الشعر أكذبه ولعلها عرفت ذلك

بالفطرة.

- الله.. الله... يا أحمد داود! جبل على جبل لا يلتقيان. وانسان وانسان يلتقيان. نحن أقارب يا ولد. أنت لاجئ فى بلاد ذوى القربى وأنا لاجئ فى وطنى. خرجنا من وادى الصليب واستجرنا بمار الياس. يا مار الياس احمنا. يا مار الياس تحرك. فلما تعبت أمى من الاستغاثة قال لها أبى: يظهر أن الرجل لجأ مع من لجأ. فسرنا شرقا. وبعد أشهر باع أبى حلية أمى الأخيرة واشترى حمارا. وصرت أسحبه من رسنه وأنادى فى شوارع القرى:

باتنجان. عجمى يا بيتنجان.

بندورة خدود العرايس يا بندورة.

طيب مفلى البيتنجان.

أكله فخرة ع السفره البيتنجان.

وصدقنى، لو كان فى بلادنا من يشحذ لشحذنا. ولكن ماذا يشحذ الفقير من المعدم؟ وهل فى خلية الدبابير عسل؟

وكما ترى يا عزيزى، كنت الحن النداء وأمطه وأحاول أن أجدده كل مرة حسب نوع البضاعة الا أننى ما تخرجت شاعرا ولا رساما بل تقلبت فى أعمال عديدة. بعد أن عدت إلى حيفا واستأجرت دارا عربية من "الابطروبوس". غسلت الصحون فى المطاعم وبعت الفلافل والذرة المسلوقة وعبدت الشوارع وقطعت الحجارة فى المحاجر وبنيت العمارات.

هل تدرى ماذا أعمل اليوم؟.

أنا أهود الجليل!

لا تعجب.. أنا أهود الجليل!!

أنا صاحب الجليل ومالك الكوشان أهود الجليل كى يأكل أولادى خبزاً. كى تشترى طفلتى دمية. كى يشترى ابنى قلما ودفتراً.

ويوم الأرض؟

أنا صانع يوم الأرض!!

يا حبيبي أنا أعمى أن التهويد عملية محصلتها اقتلاعى من جذورى. وهذا ما يؤرقنى. أنا أفلسف الأمور. جذورى ضاربة فى أعماق الأرض ولا يقوى بلدوزر على اقتلاعها! والزبد يذهب جفاء. وما ينفع الناس سيبقى. أى أنا. أى نعم أنا قل لى من أسهل على الحكومة أن تقتلع عربياً جائعاً أم عربياً شبعاً؟؟ وأحياناً، لا يعجبنى الأمر فاقول: طز. تقتل القتيل يا نضال الطويل وتسير فى جنازته. تبنى العمارات يا نضال الطويل للمستوطنين فى الجليل وتعبد شوارعها وتسقى جنائنها وتقيم ملاجئها ثم تسير يوم الأرض فى طليعة المظاهرة وتهتف "بالروح بالدم نفديك يا جليل!!"؟؟

فما الذى أوصلنا إلى هذه الحال؟ ان طاولة غسل الموتى التى يستعملها أبوك قد تهتز اذا ذكر وادى النسناس والكرمل ولكن لن تهتز شعرة فى جسم شاه عربى. وقد تغضب زانية لشرفها ولا يغضب عربى متأمرك ولو سخمته أمريكا أو أجلسته على خازوق خشن.

لقد فقدوا حواسهم يا رجل منذ أن صار قواد أوروبى اسمه بلفور شاهنشاه بلاد العرب. اللعنة على عورات أمهاتهم هل تعرف كم كلفنى البقاء فى وادى النسناس؟

أنا أهود الجليل لابقى فى وادى النسناس. وأبيع الخبز العربى فى فصح اليهود لأسقى الياسمينة التى تركتها أمك. ويحفظ أولادى أشعار بياليك ليبقى زقاق اسمه الحريرى. وأقلم الشجرة التى تركها أبوك لافرش درب عودتك بأزهارها.

- يا نضال الطويل بحياتك - ارسم لى وادى النسناس!

- أنا عامل أعبد الدروب. أبنى البيوت. أزرع الورد وأسقى الحدائق. لست رساماً ومع ذلك تعال.

وتقدمنا خطوات. افترشنا الثرى. مسحنا التراب براحاتنا. وبدأت أول محاولة رسم فى حياتى. هنا الجنوب. جبل الكرمل. لنجمع كومة تراب. عالية. من هنا ينزل درج حجرى إلى الوادى. نسير أمتارا من هنا ليمتد شارع قيسارية حتى يلتقى بشارع الخورى.غربا فيتصل بشارع الجبل الذى تحول إلى جادة الأمم فلما غضبت حكومة بلادنا على الأمم المتحدة لأنها قالت كلمة حق شطبتها وصار اسمه شارع الصهيونية. أما ناس الوادى فيسمونه شارع الجبل. ومن هذه النقطة يبدأ الحريرى ويلتقى مع شارع حداد ويتصل بالدرج الحجرى. وفى الوسط يقع الواد.. وادى النسناس. شارع هفادى...

ومحا كل ما رسمت بجرة راحة وقال: حقاً انك لا تجيد الرسم. اسمع وانظر. هنا وادى الصليب. (ولماذا وادى الصليب؟) عندما ترسم خارطة فلسطين ألا ترسم لبنان وسوريا والأردن ومصر ومعها؟ مهلا. هذا وادى الصليب. وهنا جامع الاستقلال. جامع عز الدين القسام. وهنا منطقة الأسواق. سوق الشوام سوق العطارين. سوق الصياغ. سوق.. سوق.. (هنا عمارة نسيم!). أهدأ.من نسيم هذا؟ وهنا ساحة الخمرة. وهنا نادى التمثيل الحيفاوى. وهذه سينما عين دور. وهذه كنيسة مار الياس للكاثوليك. والآن - الآن. مقهى. وهذه عيادة طب الأسنان للدكتور طويل. بالمناسبة هل تربطك به صلة قربى؟ (أنا من عائلة معبدى شوارع وبياعى فلافل!!).. وهنا شجرة. هذه دار شبلاق لنرسم زيتونة. وهذه دار دلول. لنرسم ياسمينة. وهنا بابور طحين. وهذه بئر ماء عذب. هذه ملحمة. وهذه ساحة. درج. شبتاى ليفى. سينما أرمون. ومن هنا قيسارية. وهذا النادى الأرثوذكسى. وهنا شارع الراهبات وعمارة مس نيوتن. وهذا شارع الخورى. من هنا شارع مار يوحنا. وهذا بيت كامل عودة الشيوعى صاحب الحسبة. فى أول الوادى. وهذا مقهى. هنا كان يجلس مقاول البناء أبو على الطيراوى الرجل الأسمر الجهم الوطنى. لنرسمه. وهنا كانت تسكن امرأة تحب العصافير. لنرسم قفصاً به عصافير ملونة. آه نسيت. هنا كان فرن

الأرمن. خبز عربى سخن!! آه يا نضال الطويل استطيع أن أرسم الوادى ولكن لا أستطيع أن أجعل عبير الياسين يتضوع فى لوحتى. أما أنت فتستطيع!

- أما زلت تحفظ كل هذه الأشياء؟

- وكيف لا؟ لقد تركت الوادي وأنا ابن ثلاث سنوات. الا أن أمى تقص لى كل يوم قصة الوادى وتتلو على كل صباح ومساء ما تيسر من سورة الوادي. انظر. انظر. هذه بناية تضحك. وهذه حديقة غناء. هنا شجرة دفلى. وهذه شجرة زنزلخت وهنا ورد جورى. وهذا ناد ثقافى. حديقة خضراء. يا لجمال الأزهار. قرنفل. سوسن. نرجس. الماء والخضراء والوجه الحسن.

وتذكرت عباس ولجنة الحى وسوق الخضروات والوجوه الغبراء. ولماذا لا تنتصر يا عباس ويصبح وادي النسناس حياً جميلا كما يعرفه أحمد داود؟

هيا.. متى ستنتصر؟ حتماً ستنتصر.. ويزهر الياسمين.. ويتضوع العطر..

- يا عزيزى أحمد لقد تغير الوادى.

- ماذا تقول؟ قالها من أعماقه.

- انظر يا أخى. هذا شبتاى ليفى. هنا درج مزين بالرخام وفوقه قوس جميل مكتوب عليه بالخط الكوفى: "وادى النسناس يرحب بكم". تدخل إلى حديقة غناء. فيها مقاعد للعشاق وطالبى الراحة والهدوء. وبوسطها بركة ماء بيضاوية. وهنا من الشرق قاعة مسرح وسينما. وفوقها مكتبة عامة. ومن الغرب ناد موسيقى. ونادى رياضى. فى البناية المجاورة ملتقى رجال الفكر والأدب والفن. يشربون القهوة والشاى ويأكلون الكعك والبوظة ويتحدثون فى قضايا الفكر والفن. وهنا ناد العمال. وهذا مطعم فاخر يقدم طعاما شرقيا ومقابله مطعم يقدم طعاما صينيا. وهذه اشارة مرور تمنع دخول السيارات الكبيرة. ما أكثر الاخضرار فى الوادى. الوادى جنة الله على الأرض. لا عجب هذه لوحة آدم وحواء رسمها فنان من الوادى. وهذه دار هندسها مهندس من الوادى على شكل كتاب مفتوح وفى الطابق الأرضى دار نشر كبيرة فى لغات

متعددة. هنا تصدر كتب التراث والرواية والمسرح. وهنا ساحة تعرض بها فرقة مسرح الشوارع آخر أعمالها.

وهنا روضة أطفال. أراجيح. دراجات. خيول خشبية. دمى. أولاد مثل التفاح. نظيفون وخدود تفاحية ومعهم مربية مثل الملاك. يلعبون ويشربون الحليب ويأكلون الكعك.

وهنا عند ملتقى شارع الجبل من شارع الخورى لافتة جميلة وفوقها لوحة رائعة ترحب بالعائدين.

قال: لنضف إلى اللوحة ياسمينة.

قلت: وشجرة زيتون.

قال: وسنديانة.

قلت: وعينا كحيلة.

ونظر إلى الخارطة. حدق فيها طويلا. وصار صدره يعلو ويهبط ثم قال وهو يشير بسباته: أشعر يا نضال الطويل أن هذه الدار تريد أن تعانقنى.. أن تحتضننى..

وألقى صدره على الخارطة.

(١٥ تشرين الأول ١٩٨١)



الصورة والجدار



تسللت شمس كانون من بين الغيوم وزرعت الدفء فى الأجساد فسرى إلى قلبى فدخلت وأنا أردد "الحياة حلوة".

أهلا... وأخيراً جئت. انتظرك طويلاً. هنلك قضايا لا تحتمل التأجيل، هذا ما أريده، لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، حسناً تعال معى.

بعض الناس، كثير من الناس يعيشون حياة قصيرة - المهم أن نعرف كيف نحيا الحياة. كيف نعيش بدون ألم، بدون دواء، بدون شلل بدون عجز. لا داعى إلى الخوف! فى بعض الدول الأسيوية معدل العمر ٢٧ سنة وأنت فى الأربعين. (الأربعون؟ هل يعرف معنى الأربعين؟ دم الشباب يتدفق فى عروقى. أحب الورد والبراعم والشمس. وأشرب من النهر بشراهة. أعب وأعب وأعب. وماذا ستقول لى السمراء ذات الغمازتين فى المساء؟ حين تبتسم تتفتح البراعم. وأغرق فى غمازة ويغرق العالم فى الغمازة الثانية. تداعب أناملها الحمائمية فوديً وتقول: ما أحلى الشعرات البيضاء!) هذه ليست قضيتك وحدك. كل الذين على هذا الطراز مثلك. تعملون ليل نهار إرهاق توتر. الأوضاع السياسية. أكل هوا. حياتكم غير منظمة (تلبدت سماء كانون وضاعت الشمس) لا مواعيد لوجبات الطعام. تحرقون نفوسكم مع سجائركم. صدقنى نحن بحاجة إليك. كم سنة، لا تسرع! (سنة. سنتان. ثلاث سنوات. ربما أكثر. هل أستطيع أن أنجزه؟ المشروع ضخم. تبسمت. مشروع العمر، هكذا أسميته، رسمت الخطة وضعت البرنامج، باشرت بالعمل قبل أسبوع، اذا أنجزته حققت الأمل الأكبر. السعادة العظمى. أنا أسير بخطى ثابتة وهو على قمة الجبل. ويقول: لا تسرع! سنة سنتان، ثلاث، أربع.) قال ابن سينا اللهم

امنحنى حياة قصيرة وعريضة. (الحياة حلوة. اللهم اجعلها طويلة. يوم على الأرض خير من قرن فى داخلها.) وأنت مثقف وأفضل أن تعرف الحقيقة. (أبرقت سماء كانون فتذكرت مدينة الجزار!) هذا جسمك ومن حقك أن تعرف كل ما فيه. ليس سراً ومعرفة الحقيقة نصف العلاج. انظر يا عزيزى! (يده تحاول أن تسحب روحى. أصابعه ملاقط. سبابته مبضع. ويخرج صورة بيضاء سوداء بلاستيكية من كيس الورق الكاكى ويعلق الصورة على الجدار، أنا مصلوب. أنا على الجدار. والذين صلبوك صلبونى) دعنا نتأكد أولاً. أنت ثلاثه صفر تسعة سبعة خمسة واحد أربعة؟ (كل شئ الا هذا!) أنا انت تعرفنى. الجهاز يعرف الأرقام. أرجوك. أجبنى! الموضوع غير قابل للجدل. أنت ثلاثة صفر تسعة سبعة خمسة واحد أربعة؟ أجل سيدى. أنا ثلاثة صفر تسعة سبعة خمسة واحد أربعة وبس. اذن. انظر هذا هو الأورطى. وهذه الشرايين. هذا الوريد الأجوف الصاعد وهذا الوريد الأجوف النازل. هذه الأزينة اليمنى وهذا البطين الأيمن. وهذه الأذنية اليسرى وهذا البطين الأيسر. عندما ينقبض البطين الأيسر يندفع الدم فى الشريان الأورطى الكبير الذى يتوزع فى فروعه العديدة إلى أن يصل إلى محطته الأخيرة فى الأوعية الشعرية. انظر هنا. ماذا نرى؟ (انا على الجدار. والجدار متين. كان وكانت الشمس مشرقة. أين هى؟) قلبك عضلة. قلبك مضخة. (هل مكتوب على قفا كل آدمى:...............) دائمة العمل. أنه مخروطى الشكل. القاعدة فى الأعلى والرأس فى الأسفل. (كل شئ فى العالم مقلوب.) العضلات تنبسط وتقبض. تنبسط وتنقبض. (وتنقبض؟؟) بصورة مستمرة. هذا هو الصمام. اذا امتلأ البطين أغلق الصمام. وحجم القلب قدر حجم قبضه يد صاحبه. تأمل الصورة جيداً. وضع راحته على الصورة. قلبك كبير. هذه القضية قلبك كبير نقطة. (هذا معروف. أنا رجل ذو قلب كبير. أنا أحب أنا عاشق. لى زوجة لها طعم خبز القمح الخارج توا من الفرن وحبيبتى سمراء لها غمازتان وشعر كليل أمرئ القيس أغرق فى غمازتها واتسربل شعرها. ولى طفلة اسمها "أمل". اذا ضحكت اكتست روابى الجليل بالعشب الأخضر، البحر فى عينيها. هل شاهدتها وهى تعدو أمام بيتى وتنادى من قلبها بابا. وقلبى يتسع لهن.

ولروابى الجليل والبحر، وكل الناس الطيبين، وغير الطيبين، أنا أعرف، الناس يقولون أن قلبى كبير. وزوجتى تقول إن قلبى كبير. والغمازة تقول إن قلبى كبير. والبحر فى عينى أمل يقول إن قلبى كبير. وأنت الطبيب الخبيرتقول ان قلبى كبيرا) يبدو انك لم تفهم القلب عضلة. واذا تعبت العضلة كبرت. (قلبى ينزلق، السماء ارعدت).

هل فهمت معنى القلب الكبير؟ (الدنيا مقلوبة. قلبى مقلوب قاعدته إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل. وقلب كبير. قلبى ينزلق إلى ركبتى. شفتاى جفتا. أكاد أبلع لسانى. ما أشارة الضرب "×" هذه التى تشطب المشروع؟) هذه الصورة هى الصورة، لنقسها مرة أخرى! الطبيب الاختصاصى يذكر ان قلبك كبير. والصورة تقول أن قلبك كبير. لنقسها (الشاشة الصغيرة على الجدار. البث على قنال واضح، بالألوان. حمراء.سوداء، كانون يعادى اللون الأخضر، أمهلنى أيها القلب لأرى مع الأحمر والأسود لون العشب والندى! البث مستمر أمل تلعب بالتراب. ملابسها رثة. يكاد البحر يجف فى عينيها. أعيدوا البحر إلى عينى طفلتى. أعيدوا البحر ودعونى أغرق فى عينيها. أنا أحب الموت غرقاً (القضية فى الظل!) وهذا الأورطى. انظر إلى هذه الشرايين واحد اثنان ثلاثة. جفاف فى الشرايين. الكولوسترول اللعين.هذه بداية. هذا ناقوس خطر. اشارة ضوء حمراء (برق شديد. رعد صاخب. عاصفة. أغصان الأشجار تتكسر. الجو مكفهر، قلبى فى قدمى، العرق يبل جبهتى. يسيل على وجنتى. وجنتاى خريفيتان. سقطت أوراق الخريف. عودى إلى حضن الثرى. لن أعود. حبيبتى سمراء، عندما تبتسم ينور اللوز. واذا ضحكت عيد الفرس عيد النيروز. أحب ان أرفعها فى الهواء وأضمها والثمها! اكبرها بعشرين سنة وعندما نلتقى وأغرق فى غمازتيها تعيدنى عشرين سنة إلى الوراء. والصورة معلقة على الجدار. حبى على الجدار. أمل وسماء تموز فى عينيها. زوجتى وحقول الحنطة فى ايار. حبيبتى، آذار، الضوء الأحمر) من هنا نبدأ (من هنا نتتهى!) انت بحاجة ماسة إلى نظام خاص فى حياتك، فى طعامك، فى عملك، فى راحتك، فى نومك. (أنا ضد النظام. رالنظام يرانى عدوه) وإلا.. أنت فاهم. (أتمنى أن أهشم نظارتيه الطبيتين!) لا تتفاجأ. أنت

واحد من كثيرين. والارهاق والسهر والتبغ يتعبان هذه التفاحة. وهموم العصر. انا أعرف انك تعانى. دع الارهاق. اترك السهر طلّق التبغ! إياك والهموم! (صفعة واحدة تكفى لتكسر نظارته. حياة بلا عمل؟ أنا أعمل فأنا موجود بدون سهر؟ السهر توأم الحياة والنوم توأم الموت. والتبغ؟ السمراء تعشق تبغى والسيجارة رفيقتى منذ عشرين عاماً. والهموم؟ أنا مطارد الهموم. أنا أعمل لأجل جنات الله على الأرض لا فى السماء) وللطعام أهمية كبرى. تجنب الدهون وقلل من الشراب (لا تحرمنى من الأطيبين!) وفى ساعات العصر استلقِ! استرخِ. وفى العطل الآسبوعية اترك البيت والعمل والسياسة والقلق واخرجِ إلى البر واجمع الأزهار وعندئذ سنصور قلبك ثانية. وسنرى هل توقف الجفاف؟ (السماء تمطر. قال عبد الله بن قيس الرقيات: لو بكت هذه السماء على قوم كرام بكت علينا السماء.) المهم هو ايقاف هذه الظاهرة. ايقاف الكولسترول. لا تيأس أنت فى الأربعين. والفدائيون يموتون وهم فى العقد الثالث. وفى الهند لا يحلمون بذلك. لقد جاء الأمر مصادفة: بالمصادفة صورنا قلبك، ووجدناه كبيراً وبالمصادفة نولد وبالمصادفة نموت. وأنت مثقف ومن حقك أن تفهم مرضك. اذا تعبت فكر بالصورة. واذا دخنتت فكر بالصورة. واذا أكلت شربت. ركضت. عدوت. أحببت. عشقت. ضاجعت. كرهت. غضبت. وقفت قعدت. (الصورة على الجدار. والجدار يتشقق.. الزلزال هدم مدينة الأصنام والمطر يتساقط والسماء تبرق، والغيوم تسود الفضاء، والبرق يذكرنى بغمازتى السمراء، والغيوم تذكرنى بشعرها، والمطر سيروى الأرض، والحنطة ستنمو، يا رائحة الخبز الساخن الخارج من الفرن. والمشروع فى بدايته، وأمل تعدو أمام الدار وتنادي: بابا. والعلم على الجبل، شقائق النعمان. العشب الطري وشعر حبيبتى. والابتسامة الضاحكة فى غمازتيها.).

ووقفت

تناولت الصورة ومزقتها. (خذها وادفنها فى الأرض سماداً يغذى الحنطة والزيتون والبرتقال!).

ها. ماذا تقول؟؟.

كانون الثانى ١٩٨٢.

وردة لعـــينى حفيــظة



إلى الصديق الكاتب الذى أبى أن يترجل عن الجرمق، محمد نفاع.



حدثنى جارنا سميح عن والده محمود عن مختار قريتنا أنه قال: سبحان الله الذى لم يخلق لحفيظة أخ، فاعترضه الحاضرون قائلين: أخ أم أخت يا مختار فقال مبتسماً: أخ يا ناس. لو كان لها أخ يجرى فى عروقه دم الرجال لقتل أحدنا فأعدمته الحكومة أو سكت ففقع فمات!!.

وحفيظة أشهر إمرأة فى بلدنا، يعرفها الرجال والنساء، الكبار والصغار. ليس لأن بلدنا صغيرة ومن شدة صغرها نعرف طبخة كل بيت بها بل لأن حفيظة امرأة سلبت عقول الشيوخ قبل قلوب الشباب وأثارت غيرة النساء حتى دعون عليها بالعمى وقصر العمر. وهيهات أن يسمع الله دعاء الحسود.

ومنذ صرخ سعيد الزرعي بيت العتابا المشهور قامت بلدنا ولم تقعد. النساء المتزوجات خشين على أزواجهن فكم واحدة حلمت حلماً مفزعاً خلاصته أن حفيظة ضرتها. الأمهات خفن على أولادهن الذين نبت الشعر على صدورهم واخضرت شواربهم فالحب بلاء والعشق مرض. وسل مجرباً ولا تسل طبيباً.

يقولون أن الطقس كان حاراً. والشمس تحرق ذنب العصفور. والشعير والعفير كان اصفر والقرية مرتاحة تستعد لايام الحليشة والحصاد.

ويقولون أن أمها سرحت لها شعرها بشكل مثير وربطت لها منديلا برتقاليا ورشت لها على مفرقها نقطاً من عروسة السودان ثم قالت لها: شعرك يا عينى نشف ريقى قومى املأى الجرة من العين! الله يستر عليك!!. فلما وصلت إلى العين كان الرجال مقيلين تحت التوتة فلم ينتبه إليها أحد. الا ان

الدنيا قضاء وقدر والحياة أقدام وعتبات ونواصى وأكعاب. فسعيد الزرعى ابن العمشا كان يجرى وراء جَدْىٍ أملح أفتل ليفطمه. والجدى شيطان. قفز من صخرة إلى صخرة. والولد وراءه. وفيما هو يركض ويقفز تعثرت قدمه فكاد يروح على طوله لولا حمته يداه، وعندئذ سمع صوتاً ناعماً يقول: يا حامى. فرفع رأسه واذا سبحان الخالق حفيظة تحمل الجرة الغزاوية. نظر إليها مشدوها فسارت البنت متهادية إلى مزراب العين فصاح من قحف رأسه..

أوف..

على بير الوفا وردت حفيظة

جدايل سود وإرختهم حفيظة

مسعد يللى توخذه حفيظة

غنى. لو كنت تِشْحَدْ ع البواب.

فأفاق الرجال من القيلولة، ووصل بيت العتابا إلى كل بيت. فغناه الرعاة على سفوح الجبال، والحصادون فى الحقول، والشيوخ وهم يلعبون المنقلة والفنجان ويزوجون "الديكة" في لعبة "الاسكمبيل". والصغار وهم يتسابقون على خيول القصب. وياما فصل الرجال قنابيز روزا. وياما اشتروا طواقى عسفاوية مطرزة، ولفوا الحطات كرادى، ونيلوا سراويل النيشان، وفرطوا أنصاف الليرات لتخشخش النقود فى الجيوب... كرمال عينىْ وجديلتىْ حفيظة.

وأما على الطرف الآخر من الجبهة فيقولون - والحديث ليس مسندا، ان السكّر قد انقطع من دكان حسن الدرويش - الدكان الوحيد فى بلدنا. فالنساء قد اشترينه وحولنه إلى عقيدة فصارت في بلدنا الكراعين تلمع والحواجب خطوط أقلام. وقد تعجب الغزاوى عندما زار القرية ولم تبق معه ذرة كحل. ويؤكدون صحة هذه الرواية فيزعمون أن مصطفى الغول الذى كان يتضايق من رائحة عرق زوجته حشمة التى علاقتها مع الماء والصابون غير ودية مما دعاه أن يهينها أكثر من مرة ويقول: لو وضعها أثناء الليل فى

الحاكورة لصاد ثلاث ضباع على رائحتها. مصطفى الغول هذا فاجأ حشمة فى احدى العشيات وهى مغسلة معطرة مكحلة محترقة منتوفة.

الله يقصف عمرك يا سعيد الزرعى!

ماذا فعلت يا بن العمشا؟!!

* * *



-٢-

كنت صغيراً ألعب بنوى المشمش وأبنى دوائر ومثلثات ومربعات وأشكالاهندسية أخرى عندما كانت أمى تسهر مع جارتنا حفيظة على "قُصَّة" بيتنا فى ليلة صيف مقمرة. ولما احتجت بعض النوى مررت من بينهما لاحضره من البيت فتعثرت بساقيها الممدودتين فسقطت فتلقتنى بذراعيها وأخذت تقبلنى بنهم من خدى وجبينى وشعرى الطويل وتزغزغ صدرى وأنا أصرخ متضايقاً فصاحت أمى! حفيظة! نار هبت بين رجليك!!. فتركتنى فزعة. وفرحت لأنى تخلصت منها وسأعود إلى لعبى. لكننى شاهدت حفيظة واقفة ساهمة ولا أثر للنار أو الحريق ثم سمعت أمى تقول لها باعتذار: لا تزعلى خفت على الصبى من عيونك يقولون أن العيون الخضر تفلق صخر الصوان.

أغرورقت عيناها بالدمع كالعشب المغرورق بالندى فى نيسان. وغادرت "القصة" دون أن تقول: تصبحون على خير. لكنْ أمى قالت على مسمعها: الله يطعمك يا حفيظة نتفة صبى.!!

وانقطعت جارتنا عن زيارتنا أياما وربما أسابيع. ولا أدرى حتى اليوم علام صالحتها أمى ولا كيف صالحتها. والأغرب من ذلك أننى شعرت بنسمة فرح تهب على وجهى وتنساب فى عروقى عندما شاهدتها قد عادت لتسهر مع أمى على قصة بيتنا فى ليالى الصيف!!

- ٣ -

سبعة أيام بلياليها. رقصت القرية وغنت. طبلت، وزمرت. تبارز الرجال الأشداء برفع العمدة. ووسوس الذهب فى السواعد السمر والبيض وعلى

الصدور الثيبات والبكارى. امتلأت البطون والأفواه والأيدى بالكبة والرز واللحم المسلوق والمحمر. وأطلق المختار كل ليلة سبع طلقات من فوهة بندقيته الانكليزية التى اشتراها أيام الثورة ليسلم بريشه.. فالقرية ما عرفت عرسا ولا فرحا منذ قتل الانكليز الشيخ عارف. ومنذ أن ساقوا الرجال وعذبوهم بالصبر ونهبوا القمح والزيت والسمسم وهدموا بيت الفصيل أحمد.

العرس جاء على شهوة. والعريس حسن العابد وحيد أمه. والعروس حفيظة وردة جميلة نبتت فى القرية على حين غرة بعد أيام جفاف وقحط بعد نكسة الثورة، فتاة يصح عليها قول الامام، حورية من الحور العين جسم عملاق متناسق وجديلتان سوداوان تمسان الكفل. ووجه أسمر جميل. وعينان خضروان.

قالت رقية وهى تهز عجيزتها التى أسالت لعاب أبناء جيلها: أرقصن يا لعينات. لقد جاءت هذه المرة سليمة. ولم تعلق أية واحدة منا بضرة!! فضربت صبحة على الدربكة. احنا بنات الاصايل من الله علينا الهيبة. وعانقت الأغانى السماء فوصل الصوت إلى ساحة الرجال فتملظت شفاه وتحركت أجسام وتطاولت أعناق. يللا يا سعيد الزرعى انقر على الشبابة. واتسعت حلقة الدبكة الشمالية. وغنى أحمد المجيد أغانيه الاباحية. ما ترك عضوا فى جسم المرأة الا تغزل به. هاج الرجال كالجمال بعد أكل الخرفيش والقوصان. وتركت النساء ساحتهن واقتربن يسترقن السمع. وقهقهت رقية فسمع الرجال صوتها فتواقح أحمد المغنى وقال لزوج رقية: مهرتك تطلب الفحل. روح على بيتك! وحينئذ غنى سعيد الزرعى بيت العتابا فتعالى الهتاف والصراخ. الا أن أحدهم أضاف: حسن العابد غنى ما هو شحاد. وزواجه غنى على غنى.

ونام الشباب ليلتهم وهم يتقلبون ويحسدون حسن العابد.

ونام المتزوجون مع نسائهم وأطفأوا السرج وهم يتوهمون أن فى فراش كل واحد منهم حفيظة ذات الجديلتين الطويلتين والعينين الخضراوين.

وعلى ذمة رقية أنها لم تشعر فى ليلة دخلتها بمتعة كتلك الليلة.

جازاك الله يا سعيد الزرعى يا مقصوف الرقبة!!

- ٤ -

كلما طال الزمن ازدادت حفيظة حلاوة.. وكأنها تختلف عن كل بنات جنسها. وكلما طلع جيل فى بلدنا تعلق بها فكأنهما منارة جمال تشد اليها العيون والقلوب. ما تجعد لها وجه ولا شاب شعر ولا ترهلت إلية.

تقول رقية: لا يقتل الجسم عند جنس بنات حوا الا الحبل والولادة. ونحن جنس لا يشبع.

حفيظة بعد مضى عام على زواجها طافت على أطباء المنطقة وشيوخها وشياختها. أخذت الحقن. شربت الدواء، حملت الحجاب تلو الحجاب. والحرز تلو الحرز. شربت الماء على الريق عن ورق الكتبة المندى. وحرمت على نفسها أكل الكرش والفشة ولحم الوقيعة.

وما حملت ولا ولدت.

وعندما قالت لها أمى على قُصَّة بيتنا فى ليلة الصيف المقمرة: اله يطعمك نتفة صبى. حزنت وبكت. واليوم تقول لها أمى ذلك فتغلق حفيظة: أم صبرى ما يهم صبى. بنت. كله خلقه الله.!!

نذرت أن تذبح خروفاً فى مقام أبو الهيجاء ان حملت. وانتظرت سنة بطولها فما تحرك شئ فى أحشائها.

وبعدئذ نذرت أن تنحر ثورا فى مقام الخضر وانتظرت عاما فما قطعتها العادة الشهرية.

وحينئذ وشوشت زوجها حسن العابد: افحص حالك! فصفعها على وجهها وقال: انت بغلة لا تحملين ولا تلدين.

فصرخت فى وجهه: أنا مهرة أصيلة. دور على حالك!!

- ٥ -

كانت أمى ترجل لى شعرى وتفرقه وتلبسنى قميصاً مطرزاً أشبه بفساتين البنات ثم تصر على أن أضع الخرزة الزرقاء فى عنقى وترقينى وتحوطنى من العين. وفى ليلة الجمعة كانت تبخرنى واخواتى بالمرمية. اللهم صل عليك يا نبى. وكنت أتضايق من هذه العناية الزائدة فأنا لا أحب القميص المطرز لأنه يمنعنى من اللعب فى التراب والقفز على المزبلة بحثا عن قطع الزجاج الملون والعلب الفارغة والكرارات، وكنت أنفش شعرى بعد أن أبتعد عن أمى خطوات مخافة أن يقول لى الصبيان: بنوتى خرية توتى. ويمنعونى من اللعب معهم.

وكم مرة اغضبت أمى حين رفضت القميص المطرز والشعر الممشط فحاولت ضربى على يدى فحمتنى جارتنا حفيظة.

واذكر أننى عدت مرة ملطخ الثياب منفوش الشعر ملوث القدمين والساقين والكفين نتيجة لعبى بالعواتيل فى أرض المزبلة الطرية فحلفت أمى بقبر سيدى ان تكسر يدى ورجلى فوقفت فى آخر الزقاق انتظر من يخلصنى من هذه العلقة. فجاءت جارتنا حفيظة وقادتنى من يدى وأدخلتنى إلى بيتها وغسلت لى يدى ورجلى ووجهى بالماء والصابون المطيب وأطعمتنى خبزة بيضاء وفخذ دجاجة محمرا. ولما أفقت فى الليل وجدت رأسى على ساعدها ووجهى قرب صدرها شبه العارى ورائحة عطرها تعبق فى أنفى.

ارتبكت.
خفت من الظلام الدامس فوضعت ذراعى على عنقها واحتضنتها كما أحتضن أمى. ومنذ تلك الليلة توطدت علاقتى بجارتنا. ما عدت أعمل حسابا لضرب أمى ووعيدها، صرت ألعب أكثر، واتشيطن أكثر. فكل ولد له

بيت ولى بيتان. ولكل ولد أم ولى أمان. ولكل ولد حضن يلقى رأسه عليه، ولى حضنان.

والحقيقة أننى كنت أرتاح فى بيت جارتنا فبيتها نظيف ومرتب أما دارنا فمليئة بالأولاد الذين يعادون النظام والترتيب والنظافة، ودارها هادئة ودارنا مليئة بالضجيج. وحفيظة تستقبلنى بالابتسامة المرحة وتعانقنى وتحضننى، أما أمى فتسألنى: أين كنت؟ وماذا فعلت؟ ومن وسخ ثوبك؟ وما هذا التراب على شعرك؟

وزوجها حسن العابد هادئ وينام فى فراشه وحيدا أما أبى فحين يدخل المنزل تعلن الأحكام العرفية ولا ينام فى فراشه وحيدا.

وعندما تذبح أمى دجاجة تحدث معركة وبالكاد أنال جناحا أما عند جارتنا فأنا المحظوظ آكل ما أشاء وتغريني على أكل المزيد.

وأما عن الحلوى والفستق والبذور التى يعرفها بيتنا فى المناسبات فهى متوفرة دائما فى جارور خزانة جارتنا حفيظة.

وهكذا تركت دارنا منذ طفولتى وصرت أنام فى حضن جارتنا!

- ٦ -

قال لى أحد أترابى الغلمان ونحن نسهر فى الصيف على قش البيدر: هل تنام مع حفيظة فى نفس الفرشة وتحت لحاف واحد!!

أجبت ببراءة واعتزاز: نعم.

- وماذا تفعل فى الليل يا ابن ال.....

وقال آخر: آه لو كنت محلك!!

فأبديت غضبى وامتعاضى فقال: لا تزعل. زوجها خلنثا. خمس عشرة

سنة ولم تحبل ولم تلد. انظروا يا أولاد إلى قفا حسن العابد فهو كقفا المخصى.

وتعجبت لماذا يقولون هذا الكلام البذىء عن جارتنا وزوجها عم حسن العابد. عدت إلى البيت. فى أول الزقاق جلست على حجر استعيد ما قاله الأولاد، وأربطه بما تفعله جارتنا حفيظة في الليل. كانت تقبلنى بنهم وتضمنى إلى صدرها حتى تكاد تدخلنى إلى أحشائها. وأحيانا كانت تخرج نهدها وتضع حلمتها فى فمى وتقول: ارضع يا نونو. وتقرصنى فى فخدى. ولا تضربنى على يدى عندما تسبح على جسدها وتعبث به وتقرصه.

وفى الغد حدثت لى هذه الحادثة.

كانت سلوى بنت الجيران تنزل عن سطح دارهم.. وما زالت على الدرجة العليا للسلم الخشبى. صعدت على السلم. صرخت سلوى: انزل يا صبرى. افتح لى الطريق. لم أطعها. واصلت الصعود. وكنت أعلم أن جارتنا حفيظة تراقبنا. ولما التقيت وسلوى على نفس الدرجة من السلم طوقت عنقها بذراعى وقبلتها وأنا أعلم أنها لا تستطيع أن تهرب أو أن تقاوم مخافة السقوط. ولما تركتها هبطت بقية الدرجات وهى تشتم أمى وأبى وتربيتى السافلة. وأما جارتنا حفيظة فقد نادتنى: تعال. وتناولت يدى. وفى الليل سمعتها تقول وهى تقبلنى صرت رجلا يا ملعون. أنت ديك بنت الجيران. نم. هذا قنك. وتدخل ساقى بين فخديها ويعلو نفسها كأنها مريضة بالحمى.

- ٧ -

جارتنا حفيظة أشهر إمرأة فى بلدنا. فدارها نظيفة ومرتبة. وهى أجمل امرأة فى بلدنا فوجهها أسمر وعيناها خضراوان. وهى أشرف امرأة فى بلدنا فقد تمنت أن يكون لها نتفة صبى أو نتفة بنت لكن زوجها حسن العابد الذى له قفا الخلنشا وهدوء المخصى لم يسعدها.

اشتهاها رجال القرية من المختار إلى الامام إلى الناطور. اشتهوها يوم غنى

لها سعيد الزرعى. ويوم زفافها لحسن العابد. وازدادت شهواتهم لها بعد أن علموا أن زوجها عاقر ولن يولدها صبيانا أو بناتا. حسبوها صيدا سهلا.

سليم النمر صاحب أكبر ديوان فى القرية رجل قوى وجميل وغنى. علم يوما أن حفيظة تعمل لوحدها فى الكرم الغربى. حلق ذقنه وتعطر ولبس أحلى ملابسه وسار شمالا حتى يضيّع الشك. ثم عرج غربا حتى فاجأها وهى تقلع العشب فى الكرم.

قال العوافى يا حفيظة.

- الله يعافيك يا أبو نمر.

- حفيظة أنا تعبان ومحتاج للفى. عطشان ومحتاج لشربة مى. والفى تحت نهودك. الذلال فى شفاهك.

- مش كل الطيور بتاكل لحمها بو النمر. استحى على القهوة السادة فى ديوانك. يا عيب انصرف افضل ما اجمع البلد على رزالتك!!

وانصرف خائبا.

واحد من كثيرين.

كلهم عادوا بخفى حنين.

وبعد أن كبرت - فقط - عرفت لماذا كان سليم النمر ينادينى أثناء وحدته ويحاول أن يسقينى فنجان قهوة مرة.. ويشمنى... ويقول لى: سلم يا ولد!!

- ٨ -

أمس انتقلت جارتنا حفيظة إلى رحمة الله تعالى. كانت لها جنازة عادية. سار بها عشرات الرجال يتقدمهم الامام يتلو الآيات المعهودة التى تذكر بالموت تقصم الظهر وتجعل الرجل المؤمن يرتعد هولا.

طلق زغرودة عندما خرج نعشها من الدار لتعبر عن العز. فلا أبناء

ولا بنات ولا أحفاد ولا حفيدات!!!

ما قدم أحد التعازى لحسن العابد. نظروا اليه بشزر.

لو كانت عاقرا لتزوج حسن من أخرى.

- هذا هو الأصول.

- بقيت دون ذرية لأن زوجها عاقر.

- ولم تذكر ذلك أمام الناس.

- لو ذكرته لأهانت زوجها.

- وكان دعوة صريحة للرجال.

وقالت رقية: ليس لك إلا الصبر يا بنت حواء

وقال سليم النمر: رحمك الله. لقد كنت أطهر من حمام مكة.

وتغامز البعض.

وحين عدت إلى البيت بكيت وبكيت.

منذ سنوات صرت شابا. وعدت إلى بيت أمى. وتزوجت سلوى. ثم سكنت فى المدينة حيث بدأت أعمل فى أحد مطاعمها.

ايه يا جارتنا حفيظة. لقد كتمت السر سنوات عديدة. اللهم عفوك.. اللهم عفوك.

ويا جارتنا حفيظة:

أقبلى هذه القصة نبتة خضراء فوق عينيك الخضراوين..

وردة حمراء فى مفرق شعرك الأسود ذى الجديلتين الطويلتين.

حزيران ١٩٨٠

(*) الخلنثا، لا هو ذكر ولا أنثى، حسب التعبير الشعبى، والأرجح أن الكلمة متدرجة عن كلمة "الخنثى".

المحتويات

* عائد المعيارى فى تل الزعتر ٧
* العاديات ١٥
* وصادروا الفرح فى مدينتى ٢٥
* بيان رقم ١ ٣١
* المنعطف ٤١
* حكايا.. ما بعد الأيام الستة ٤٩
* «بروخ هبا» مار سادات ٥٧
* ثلاث حكايا بعد ألف ليلة وليلة ٦٧
* وصار اسمه فارس أبو عرب ٧٧
* فارس هذا العصر ٩٣
* صبى وبنت من مخيم الدهيشة ١١١
* يلعن أبو ١٢٥
* العلم ١٣٩
* خارطة جديدة لوادى النسناس ١٤٧
* الصورة والجدار ١٦١
* وردة لعينى حفيظة ١٦٧

شركة الفجر للطباعة
العاشر من رمضان
ت : ٣٦٢٨٨١ ــ ١٥.

رقم الايداع / ٩٤٠٨ / ٨٩

الترقيم الدولى / ٨ـ٩٩ـ٠ـ٢٣٥ـ٩٧٧



ليس عائد وحفيظة ثنائياً عاطفياً من نوع روميو وجوليت أو ياسين وبهية، ولعلهما لم يجتمعا معاً إلا فى هذا الكتاب، ذلك أن الكاتب أصدر مجموعته القصصية "عائد المعيارى يبيع المناقيش فى تل الزعتر" عام ١٩٧٨، وبعد سنوات أصدر مجموعته "وردة لعينى حفيظة" التى سببت له من المتاعب الكثير لدى السلطات الصهيونية، مما أوصل الكتاب إلى المحكمة التى وقفت طويلاً عند قصته "العلم" التى لا يخفى من خلالها انتماءه وهواه الوطنيين الفلسطينيين.

وقد اخترلنا، لضيق صفحة الغلاف عنوانى المجموعتين، ليصبح عنوان هذه الطبقة الخاصة لهما: "عائد وحفيظة"

ومحمد على طه، الكاتب الفلسطينى المتفوق، مولود فى قرية ميعار من الجليل الفلسطينى عام ١٩٤٢، وله سبع مجموعات قصصية.

يتميز نتاج محمد على طه باللغة الشاعرية، واللوحات المتتابعة، التى تشكل بتراكمها حالة نوعية تفوح منها رائحة تراب فلسطين وأزاهيرها وعرق أهلها الصامدين فى وجه الاحتلال ممسكين بالهوية، متشبثين بالجذور.

وإلى ذلك، فهو أحد ثلاثة أو أربعة، هم من أهم الأصوات القصصية الفلسطينية المعاصرة فى الوطن والمنافى على حد سواء.